

الأسس الفكرية

لليسار الإسلامى

خليل عبد الكريم

كتاب الأهالى
رقم ٥١/ مارس ١٩٩٥

رئيس الحـــزب : **خالد محيى الدين**

رئيس مجلس الإدارة : **لطفى واكد**

مجلس التحرير: د.إبراهيم سعد الدين/ أبو سيف يوسف/ حسين عبد الرازق/ د.عبد العظيم أنيس/ عبد الغفار شكر/ د.محمد أحمد خلف الله.

الإدارة والتحرير: ٢٣شارع عبد الخالق ثروت شقة ١٨ القاهرة ج.م.ع

ترسل جميع المراسلات باسم رئيس التحرير.

الإعلانات: يتفق بشأنها مع الإدارة.

الأعداد السابقة : توجد نسخ محدودة من الأعداد السابقة من السلسلة ترسل لمن يطلبها خارج القاهرة أو خارج جمهورية مصر العربية بالبريد المسجل ويحسب سعر الكتاب على أساس أن الجنيه يعادل (دولار أمريكى) ويضاف جنيه مصرى داخل مصر على ثمن الكتاب نفقات البريد كما يضاف «دولار» واحد خارجها إلى الثمن ويحول ثمن الكتاب بحوالة بريدية باسم الأهالى.

كتاب الأهالى سلسلة كتب شهرية تصدرها جريدة الأهالى «حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى» مصر.

أما وقد صمتت مدافع الأمة عن الدفاع، وحول العدو نيران مدافعه إلى جبهة الوعى والانتماء فقد كان لابد وأن يصدر كتاب الأهالى ليكون بعض جهدنا المتواضع فى المعركة التى تدور على جبهة العقل ليساهم فى إعادة بناء الجسور المنهارة بين الطليعة والشعب وبين المواطن والوطن وبين الوطن والأمة وبين هؤلاء جميعاً والكون الذى نعيش فيه.

ولأننا نعيش فى عصر ثورة الاتصالات الذى يؤدى تدفق معلوماته إلى تشوش فى اليقين فإن حاجتنا إلى العودة للتبشير بالبديهيات وإعادة إحياء الذاكرة الوطنية لاتقل عن حاجتنا إلى التعمق الذى يحيى اليقين لا الذى يشوش عليه. وإذا كان منطق الحركة السياسية اليومية يحتمل المساومة والوسطية فإن جوهر دور اليسار على صعيد الوعى والانتماء هو الهدم والبناء ذلك أن الأمر هنا أمر تكوين وتأسيس يتجاوز ضرورات الحاضر وقيوده إلى آفاق المستقبل وأحلامه.

كتاب **الأهالى**

ثقافة الهدم والبناء

رئيس التحرير: **أمينة شفيق**

الأسس الفكرية
لليسار الإسلامى
خليل عبد الكريم

الطبعة الأولى - (١٤١٥ - ١٩٩٥)

التجهيزات الفنية: مؤسسة الأهالى
(٢٣ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة ت: ٣٩٢٣٣٠٦ - ٣٩٢٢٤٠٨)

أعمال الصف:
عزة عز الدين
نعمة محمد على
منى عبد الراضى
التوضيب الفنى:
سهام العقاد
المراجعة اللغوية:
عبد الله السبع
سكرتير التحرير:
عادل بكر

الطبعة الأولى
١٩٩٥ - ١٤١٥هـ

الأسس الفكرية
لـ «اليسار الإسلامى»

قواعد عقائد «اليسار الإسلامى»

مقدمة

عندما طالعت التحقيق الصحفى الذى كتبه عنى الصحفى الأمريكى ستيف نيقوس والذى نشر فى جريدة ميدل إيست إيچيبت بتاريخ ٢٣ أكتوبر ١٩٩٤بعنوان: مقابلة مع مفتى الماركسية (وهو أحد الألقاب التى أنعم علىّ بها خصومى فى الرأى ومنها الشيوعى الملتحى والشيخ الأحمر .أ.هـ) ووصف فيه ملبسى ومكتبى المتواضع الذى يقع فى منطقة شعبية فقيرة، أدركت أنه وضع يده على الجرح كما يقول المثل الشعبى إذ تساءل:

الشيخ.. مظهره إسلامى..
وسمته إسلامى.. وينطلق من أرضية إسلامية فى خطابه وطروحاته.. فلماذا إذن يرفضه الإسلاميون (هم فى الحقيقة إسلامويون كما أصر على تسميتهم .أ.هـ) وينفونه من صفوفهم ولا يعتبرونه واحداً منهم؟

وقلت لنفسى: كيف استطاع هذا الصحفى الأمريكى الذي لم يمكث معي أكثر من ساعتين أن يدرك أنني أقف على أرضية إسلامية لم أغادرها فى يوم من الأيام، ولم يدرك ذلك الإسلامويون الذين زاملت أغلب نجومهم الساطعة وبدورهم اللامعة الآن.. زاملتهم فى سجون الناصرية (السجن الحربى ومزرعة ليمان طرة.أ.هـ) ، وخرجت مع آخرين فى سبيل الله عدة أسابيع (أحدهم خرجت معه لمدة خمسين يوماً قضيناها فى الولايات المتحدة الأمريكية وهو الآن

يشرف على جريدة دينية يصدرها حزب معارض تصليني ناراً حامية.أ.هـ)!!!

أهى المصالح والمنافع والمكاسب التي تعمي البصائر قبل الأبصار وتجعل من يزعم أنه داعية يسكت عن شهادة الحق ويتحول إلى شيطان أخرس؟!

بل إن بعضهم تحول إلى شيطان ناطق ومن أشد المهاجمين شراسة وضراوة !! ولاحول ولا قوة إلا بالله. وعلى كل فإننى- مع تقديري البالغ لـ «ستيف نيقوس» لأنه كان أميناً (فيما عدا عنوان التحقيق الذى قال إنه فُرض عليه فرضاً لزوم الصنعة الصحفية. أ.هـ)- لست فى حاجة إلى شهادة الفرنجة لتشكل دليل ثبوت على إسلاميتى.

وللقارئ الذى لم يكن قد تابع كتاباتى أقدم أهم القواعد التى نؤمن بها نحن كتيبة «اليسار الإسلامى» والتي كثيراً

ماذكرت أننى مجرد جندى بسيط فيها، ولقد راعيت فيها الإيجاز على قدر الإمكان خشية الإملال والزهوق (فى المعجم الوسيط ، الزهوق:الخروج بصعوبة ومنه قول الشاعر : فلما تولت كادت النفس تزهق).

(أ)

لسنا نقول كالدكتور حسن حنفى: «احتمينا بالنصوص فدخل اللصوص» ولكن نقول لهم: «وسعتم خيمة النصوص فتعمقت هوة التخلف والنكوص» لأن النصوص مجالها : العقيدة والعبادة والأخلاق فأرادوا لحاجة فى نفس يعقوب مدها إلى مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة والفنون والآداب والإعلام والتعليم والعلوم الإنسانية بل والعلوم التجريبية حتى الطب، فتولد الإرهاب والعنف وازدادت التواكلية والقدرية والتسليمية والتفويضية وظهرت الخرافات والشعبذات و «التوهمات»، وكلها بلا استثناء رفعت شعارات الدين، وخاصمونا ورققوا عقيدتنا عندما لفتنا أنظارهم إلى أن الإسلام شأنه

فى ذلك شأن الديانتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاه فى التاريخ- ميدانه الأصيل: المساجد والجوامع والتكايا والربط والخانقاهات والزوايا والمصليات والحسينيات والخلاوى (ج. خلوة) وحضرات الصوفية وحلقات الذكر ومجالس دلائل الخيرات، ذكرنا لهم ذلك منذ خمسة أعوام فى كتابنا «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية» ولكن أخذتهم العزة بادعاء تملك الحقيقة المطلقة فاعتبروا ذلك توهينا للإسلام وطعناً فيه، مع أن العكس هو الصحيح، إذ رسالة الدين الوحيدة والرئيسة هى تخريج المؤمن الصالح، أما الجوانب الأخرى من الحياة فهى موكولة إلى علوم دنيوية بحتة، وسندنا الذى نقطع به حجة المعاندين والمكابرين وهيئة المنتفعين بإخراج الإسلام من تلك الأماكن المبروكة التى ذكرنا هو الحديث النبوى (فما كان من أمر دينكم فإلىَّ وما كان من أمر دنياكم فشأنكم به، أنتم أعلم بأمر دنياكم) أخرجه مسلم فى الصحيح وابن ماجة فى السنن وأحمد فى المسند.

(٣)

نحن نؤمن بتاريخية النصوص وبربطها بأسباب ورودها وبالفترة الزمنية التى ظهرت فيها و بالبيئة التي انبعثت منها وبالمجتمع الذى ولدت فيه، بل وبالظروف الجغرافية التى واكبتها وبالدرجة الحضارية للمخاطبين بها وبمداهم المعرفى وأفقهم الثقافى مع الوضع فى الاعتبار أن النصوص ذاتها ذكرت صراحة أنها تتوجه إلى أمة أمية.

نحن لا نسلم بقاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» لأن فيها إهداراً للسبب وإهداره يحجب المدلول الحقيقى لـ (اللفظ) ويُغيم عليه ويشوش معناه، ومن ثم يجئ الحكم رجراجاً مائعاً غير منضبط، وهذا أحد وجوه علل (ج. علة) اختلاف الفقهاء وتناقض أحكامهم حتى فى أخطر الأمور:

فما يراه أحدهم بيعاً يجزم آخر أنه ربا، ويذهب فقيه إلى أن هذا الفعل زنا صريح فَيُفتى آخر أنه نكاح صحيح أو على الأقل نكاح فاسد (النكاح هو الزواج أ.هـ) لا يستوجب إقامة الحد ولا حتى التعزير.

وفى رأينا أن هذه القاعدة تدخل فى باب الحيل التي لجأ إليها عديد من الفقهاء، ونؤكد أن المعايير لن تضبط إلا إذا عدلنا عن هذه القاعدة ووضعنا نصب أعيننا «السبب» ونحن نفسر النصوص.

ومن الغريب أن النصوص ذاتها أدركت خطورة هذا الأمر فقررت مبدأ النسخ: حكم صدر فى وقت معين ليفى بغرض ما يحقق حاجة خاصة ثم تتغير الظروف ويستبين بجلاء أن بقاء الحكم واستمراره فيه عسر ومشقة فيأتى نص جديد بنسخه وبحكم آخر فيه تيسير وفرج.

فإذا كانت النصوص نفسها تناسخت (نسخ بعضها البعض-أ.هـ.) خلال عشرة أعوام أو يزيد قليلاً هى عمر التجربة اليثربية أو تجربة المدينة (نحن نعلم أن بعض الفقهاء قال إن سورة المزمل وهى مكية فيها نسخ وأنها نسخت بعد ذلك بالصلاة التى شرعت أيضاً فى مكة، ولكن هذا نادر والنادر لا يقاس عليه والنسخ المعوّل عليه ومدار النقاش هو الذى تم فى الحقبة المدنية أ.هـ.) فكيف تستسيغ العقول رفض مبدأ أو نظرية التاريخية.

ولقد أدركوا مؤخراً خطورة المغزى العميق لمسألة النسخ هذه ومدى الحجة

الدامغة التى تعطيها لنظرية التاريخية، فنادوا برفض النسخ فى النصوص (فى أهرام الجمعة ١٤ جمادى الآخرة ١٤١٥ الموافق ١٨ نوفمبر ١٩٩٤ فى ندوة «المبادئ القانونية فى القرآن» التي نظمها المعهد العالمى للفكر الإسلامى بالتعاون مع الجمعية العربية للتربية الإسلامية، وأدارها مستشار أصدر فتوى قانونية برقابة الأزهر وهيمنته على كافة الإبداعات الفنية، وقف أحد أعضاء هيئة التدريس فى إحدى كليات الحقوق وأكد أنه لايوجد نسخ فى آيات القرآن الكريم، ووافقه على ذلك واعظ طاعن فى السن، اختلط بآخرة ، فأخذ يسارع فى إصدار فتاويه بتكفير المسلمين أ.هـ.)، وهى محاولة تكشف عن حجم التخبط الذى يقعون فيه لأن النسخ أمر ثابت نص عليه القرآن وقال به أعلام الأئمة بل وصنفوا فيه أمهات الكتب، نذكر مُنهم على سبيل المثال: أحمد بن حنبل وقتادة بن دعامة السدوسى وابن شهاب الزهرى، وعطاء وأبو عبيدة القاسم ابن سلام وسليمان وأبو داوود السجستانيان ومكى ابن أبى طالب وغيرهم كثير.

ويرى ابن حزم أن النسخ فى القرآن الكريم حدث فى ٢١٤ قضية، وعند أبى جعفر النحاس ١٣٤ قضية، وعند ابن سلامه ٢١٣ قضية وعند عبد القاهر البغدادى ٦٦ قضية وعند ابن بركات ٢١٠ قضايا وعند ابن الجوزى ٢٤٧ قضية (الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم تأليف الإمام الأجلّ الحجة أبى جعفر النحاس- تحقيق أ.د. شعبان إسماعيل- الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦- مكتبة عالم الفكر) وهذا يعطى فكرة عن مدى ضخامة النسخ فى القرآن وحده، ومعلوم أن هناك نسخاً فى الأحاديث النبوية، وعندما تقر النصوص نفسها مبدأ النسخ وتطبقه مئات المرات إبّان عقد واحد من السنين

(العهد المدنى) ويرسخه ويؤيده شيوخ الإسلام وحُججه ويؤلفون فيه عشرات الكتب ويوردون الأدلة الدوامغ عليه، فكيف يتسنى التمسك بحرفية النصوص لمدة أربعة عشر قرناً (القرن الواحد عشرة عقود أ.هـ) ودون التفات إلى أسباب ورودها والظروف الحافّة بها وكافة الأنساق المعيشية التى كان عليها أول من تلقاها شفاهة؟ أليس من صالح النصوص ذاتها والمخاطبين بها البحث والتمحيص والتدقيق فى تلك الأمور جميعها، وذلك للنفاذ إلى المغزى المقصود منها (=النصوص) وتوظيفه على موجبات كل عصر لأنه هو الجوهر واللب والعصارة؟

فعلى سبيل المثال:

إذا كان الهدف فى مسألة لباس المرأة، المشهور إعلامياً بِ "الحجاب" هو التمييز بين النسوان الحرائر والإماء أى الجوارى أو العبدات والإعلام للذين فى قلوبهم مرض بوضع الأوليات ومكانتهن الاجتماعية العالية ليكفوا عن التعرض لهن (معاكستهن بالتعبير المعاصر أ.هـ)، وهو ماعبرت عنه الآية ٣٣/٥٩ (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين)، وإذ أن البشر أخيراً توصلوا بجهودهم وعرقهم ودمائهم إلى إلغاء الرق فلا تنقسم النسوة حالياً إلى طبقتين حرات وعبدات، كما لم يعد هناك إيذاء تتعرض له النساء مرده الزى أو الملبس (الطبقى)، إذا ثبت ذلك وهو ثابت لا مشاحة، استبان أن التمسك بما يعرف بِ "الحجاب" هو التفات إلى حرفية النصوص و غفلة عن مغزاها ومعناها ومقصدها والهدف التى تبتغيه.

والذي كشف لنا عن ذلك كله هو السبب : سبب انبثاق نصوص ما يعرف بِ «الحجاب» والواقع الاجتماعى السائد آنذاك والتمايز الطبقى بين الحرة

والأمة (الجارية أو العبدة .أ.هـ.)، فجاء علاج المشكلة بتكريس ذلك التمايز الطبقي وتأكيده بتخصيص كل طبقة منهن بلباس معين يغدو علامة على وضعها الاجتماعي فلا يقدم مرضى القلوب والفسقة على التعرض للنسوة الحرائر، فإذا انتفى هذا التمايز وأصبحت النسوان كلهن حرات ليس بينهن عبدات غدا التمسك بالحجاب فهماً مغلوطاً للنصوص يتعين المسارعة إلى تصحيحه حرصاً على النصوص ذاتها لأن عافيتها لن تستمر إلا بمعرفة المغزى التي جاءت به ولا ستخدام هذا المغزى على كل عصر بعد حسبان موجباته، أما التشبث بالحروف والألفاظ فهو يجمد النصوص ويحجرها ويظهرها بصورة الحفريات ومعروضات المتاحف التي تعرض الآثاريات (تسميها القاعدة الشعبية "الانتيكات" وهو لفظ مأخوذ من اللسان اللاتيني أ.هـ.).

(٣)

في ملتنا واعتقادنا أن كل من نطق بالشهادتين فهو مسلم ولو قالهما تحت حر السيف، لإننا لا نفتش في قلوب الناس ولا نشق صدورهم لنعرف نواياهم لإنها موكولة إلى الله تعالى وحده، ولا نكفّر أحداً من أهل القبلة إلا ببرهان ساطع، وندين ماشاع وذاع في الأيام الأخيرة من التعجيل بتكفير الموحدّين، لأن هذا مخالف لأبسط قواعد الإسلام وما أطبق عليه أئمة الهدى ومصابيح الدجى من أنه إذا قال مسلم لمسلم يا كافر بدون تأويل فقد كفر لأنه سمى الإسلام كفراً، وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا قال الرجل لأخيه يا

كافر فقد باء بها أحدهما ، واعتمد ذلك المتأخرون كابن الرفعة والقمولى والتتائى والإسنوى والأذرعى وأبى زرعة وصاحب الأنوار والرافعى والمتولى ووافقهم عليه جمع من أكابر الأصحاب منهم الأستاذ أبو اسحق الاسفراييني والحليمى والشيخ نصر المقدسى والغزالى وابن دقيق العيد (المزيد من التفصيلات يمكن الرجوع إلى كتاب «الإعلام بقواطع الإسلام» للإمام ابن حجر المكى الهيتمى).

وفى مذهبنا أن الإسلام الثابت لا يزول بالشك، والكفر شئ فظيع لا نقطع بحصوله إلا بدليل قاطع لا يأتيه ريب من أى مكان، ونحسن الظن بكل مسلم فلا نتعجل برمنيه بالكفر ونتلمس له زاوية الإيمان فى قوله أو فعله لأن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، وإذا كان فى قوله أو فعله تسعة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنعه فنحن نأخذ بهذا الوجه لأننا لا نكفّر بالمحتمل والمظنون والمشكوك فيه، لأن الكفر يستوجب العقوبة القصوى وبالمقابل يستلزم حجة ظاهرة كالشمس فى رابعة النهار، فإذا اخترمتها نسبة ولو ضئيلة من الريب طرحناها جانباً، وهذا هو نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم وهذا هو الفرق بين الفقيه الذى يفتى لوجه الله وبين المتفيقه الذى يفتى سياسة أو مصلحة ويّوظف معارفه الدينية لخدمة جماعة أو حزب أو جرياً وراء شهرة زائفة أو منفعة عاجلة (يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل).

(٤)

نحن نذهب إلى أن الخلافة منصب مدنى سياسى استقاه المسلمون الأوائل من النظام القبلى، فالخليفة هو شيخ المسلمين ورئيسهم السياسى وأن ظروفاً

عديدة تضافرت على بروزه لحيز الوجود (برجاء الرجوع إلى كتابنا «الجذور» فصل «الخلافة») وأنه ليس فرضاً دينياً ولو كان كذلك لما استطاع أتاتورك إلغاءه لأن الغازى لم يلغ رسماً من رسوم الإسلام مثل الصلاة و الصيام والحج، والحق أن القول بأنه هو الذى ألغى الخلافة فيه تجاوز كبير، بل الصحيح أن يقال إن الإلغاء تم فى عهده، وهناك فارق كبير بين التعبيرين لأن الظروف هى التى أملت اختفاء منصب الخلافة، بعد أن لم يعد ملائماً لموجبات القرن العشرين، وقد مضى ذلك النظام بحسناته وسيئاته بعد أن أدى دوره ومن ثم تغدو المناداة بعودته ضرباً من العبث وتضييع الجهد والوقت اللذين يمكن أن يُصرفا فيما هو أنفع، ذلك أن المستجدات التى طرأت على أحوال المسلمين من ناحية وعلى الساحة الدولية من ناحية أخرى تحول دون ذلك، والذى يتخيل وجود خليفة واحد يحكم المسلمين من الجمهوريات ذات الأغلبية المسلمة التى كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتى سابقاً، شمالاً حتى جيبوتى جنوباً ومن مراكش غرباً حتى سلطة بروناى شرقاً إما واهم أو حالم .

ومن الذى يتولى الخلافة: أهو حاكم مصر لأنها أكبر دولة عربية ولمالها من وزن ثقافى وعمق حضارى، أو ملك السعودية التى تقع فيها مدينتا القداسة «مكة والمدينة»، أم الأخ الرئيس ياسر عرفات باعتبار أن القدس أولى القبلتين تقع أو سوف تقع تحت هيمنته أو على الأقل هذا ما نرجوه؛ أم يطالب بالمنصب حاكم أكثر الدول تعداداً مثل باكستان أو أندونيسيا ؟

وهل شروط الخلافة التى نص عليها الفقهاء تنطبق على واحد من هؤلاء ؟ وفى مقدمتها شرط القرشية!!!، أم أن أصحاب عودة الخلافة سيقولون: إن تلك الشروط وخاصة الأخيرة كانت متوافقة مع ظروف تلك العهود وإنه ليس من

اللازم أن تنسحب على عصرنا، وهنا نرد عليهم إن هذا هو عين مبدأ التاريخية الذى نؤكده ومن أجله ترموننا بكل نقيصة. وهل وضعوا فى حسابهم: كم رئيس أو ملك أو سلطان أو أمير يوافق أن يتحول إلى مجرد حاكم ولاية (بالتعبير القديم: عامل .أ.هـ) بعد أن كان يرأس دولة لها كيانها المستقل و علمها ونشيدها الوطنى وجيشها.. إلخ، ويقبل أن يتلقى التوجيهات من الخليفة و يأمره فيطيع وإلا عزله بكلمة واحدة؟!

سيكون جوابهم : إن من لا يقبل منهم بذلك نقاتله!

فنسألهم : وهل تساوى عودة الخلافة قيام فتن «ثورات» وحروب أهلية فى كل الدول الإسلامية تزيدها وهناً وتفسخاً؟ وهل يقبل الإسلام ذلك إنْ فى نصه أو روحه؟ لعلهم- بعد أن أوضحنا لهم المشكلات العملية التى تحول دون ما يُطالبونه به (فى كتابات أخرى أوردنا الاعتراضات النظرية أ.هـ) يكفون ويطالبون كل رئيس دولة إسلامية العمل على النهوض بدولته.

(٥)

نحن نعمل على تفكيك القباب المقدسة قداسة زائفة التى حجبت الهواء النقى عن العقل الإسلامى وكبلته وقيدت حركته، بأن نبين للناس أن النصوص الأصلية التى هى عماد الدين وسنامه هى القرآن والسنة وما عداها فهو منتج بشرى معرض للخطأ والصواب ، والقائلون به رجال ونحن رجال على حد تعبير الإمام الأعظم أبى حنيفة، هم اجتهدوا لزمانهم ومن حقنا أن نجتهد لعصرنا، ونحن أعرف به وكتاباتهم يتعين بطريق الحتم واللزوم أن تخضع للنقد

والتمحيص والمراجعة فما وافقنا منها قبلناه ومالم.. نبذناه ولا تثريب علينا في ذلك؛ لأن شل العقل الإسلامى تحت رهبة القداسات الزيوف هو أحد أقوى الأسباب الفاعلة فى إيصالنا إلى ما نحن فيه.

نحن نرى أن: شيخ الإسلام وحجة الإسلام وحبر الأمة وواعظ الآفاق والإمام الأعظم وإمام الحرمين والأستاذ وقاضى القضاة وشمس الأئمة وإمام أهل السنة وأمير المؤمنين فى الحديث والحافظ الكبير والإمام المجتهد، وعالم قريش وإمام أهل المدينة... إلخ. كل هؤلاء لا عصمة لقولهم (لدينا نحن أهل السنة والجماعة أ.هـ) لأن العصمة للرسول وحده - عليه الصلاة والسلام- وهذا ما أكده منذ قرون طويلة الإمام مالك بن أنس شيخ المذهب: كل شخص يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا المقام (وأشار إلى مثوى الرسول عليه الصلاة والسلام حيث كان يلقى درسه فى مسجده. أ.هـ).

ومن المفارقات المؤلمة أن من جاء بعد مالك خالف نهجه وحاد عن طريقه وحول أقواله وغيره من الفقهاء والأئمة نصوصاً مقدسة يتوجب الانحناء لها والتسليم بها تسليماً مطلقاً، أما نقدها وتوهينها وتفنيدها فهى أمور محظورة ومن يجرؤ ويفعل ذلك فهو مارق تعدى على الإسلام ورموزه وأزرى بهم. مع أن الإسلام لم يعرف له رموزاً ورمزه الوحيد من البشر هو الرسول عليه السلام، ولم يرد لا فى الكتاب ولا فى السنة أن له رموزاً يتعين على المسلمين أن يذعنوا لأقوالهم والذى نعلمه أن ذلك حق للرسول دون سواه (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ٤ / ٦٥، ومن الغريب أن الخلفاء الراشدين والصحابة لم يدّعوا أنهم رموز الإسلام وأن ذواتهم لا تمس وأن كلامهم مقدس ورأيهم معصوم، بل إنهم

نظروا إلى أنفسهم ونظر بعضهم لبعض على أنهم بشر مثل غيرهم يجوز عليهم ما يجوز على الناس من عوارض إنسانية وصرحوا بذلك علانية وألحوا على الناس أن يقوّموهم إذا اعوجوا ويصححوا لهم أغلاطهم، ولقد قال أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له عند توليه الخلافة (.. فإن استقمت فاتبعونى وإن زغت فقومونى.. ألا وإنما لى شيطان يعترينى)، وصححت امرأة (لم يذكر المؤرخون لنا اسمها لأنها من العامة أو السواد أو الدهماء كما كانوا يسمون أبناء القاعدة الشعبية العريضة!أ.هـ) للخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما وقع فيه من لبس فى مسألة المهور وكان شجاعاً فاعترف بخطئه وهو واقف على المنبر وسمعه الألوف، وعمر وإخوانه هم الذين عاشوا مع الرسول وأخذوا عنه الدين فهم أصح الناس فهماً للإسلام نصاً وروحاً، فلو كان نقدهم أو معارضتهم أو تقويمهم من المحظورات لما طلبوا من الناس أن يقدموا على ذلك، ولأمروهم بأن يسلموا بكلامهم ويسمعوا ويطيعوا دون نقاش ولعابوا على من يخالف ذلك ولشهروا فى وجهه سيف عبارة «رموز الإسلام» الذى سلّه البعض مؤخراً إرهاباً لمن يجرؤ على نقد فقيه أو شيخ مذهب ومن ناحية أخرى لعجزهم عن الرد على من يجد لديه الكفاية العلمية لنقد واحد من أولئك والكشف عن مواطن الزلل فى طروحاته، وبدلاً من أن يقارعوه الحجة بالحجة يلجأون لهذا السلاح المفلول.

إن فى اعتقادنا أن من أقوى أسباب تعطيل عمل العقل الإسلامى هو الدخول تحت مظلة القباب المقدسة قداسة مزيفة، وبالمقابل فإن من أهم العوامل الفاعلة فى تحريره هو تفكيك تلك القباب الزيوف وتعريتها وإظهارها على حقيقتها وكيف أن رصيدها من القداسة والعصمة صفر فى

ميزان الإسلام الصحيح.

بداهة لا نعنى التطاول والتهجم دون سند من علم أوفقه ولكننا نقصد النقد الموضوعى الذى يتأسس على علم غزير وفقه عميق، أما الحؤول دون ذلك تحت شعار «رموز الإسلام» فسوف يؤدى؛ بل هو أدى فعلاً وواقعاً إلى ترسيخ الوضع المزرى الذى تتردى فيه الشعوب المسلمة من المحيط إلى الخليج ولأن حرية الفكر ضرورة ملحة لكل نهضة وصحوة.

(٦)

نحن نعارض مقولة الغزو الفكري (أو التغريب حسب توصيف البعض .أ. هـ) ونرى أنها تسئ للإسلام وتظهره فى صورة الديانة الهشة التى تذروها أية هبة ريح والأسباب التى يسوقها أصحاب المقولة مثل: العداء الصليبى للإسلام والمسلمين والضعف الفكري والتفكك الاجتماعى لدى المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة فى حين أن الغرب قطع شوطاً هائلاً فى التقدم العلمي، هذه الأسباب معكوسة بمعنى أنها هى التى من المفترض أن تدفع المسلمين على الانفتاح على ثقافات الآخرين بمعناها الواسع وذلك ليتعرفوا على دوافع العداء الصليبى وبواعثه و ينقبوا على جذوره التاريخية ويحاولوا تضييق مسافة الخلف أو الخصام أو العداء مع الآخرين، لأن الوضع الحالى للمسلمين لا يتيح لهم أن ينابزوهم بالشقاق، بل عليهم أن يتفهموا حقيقة موضعهم من الخريطة العالمية وعلى ضوء هذا الفهم يجيئ تصرفهم بحكمة

وكياسة فـ(المؤمن كيسٌ فطن) بنص الحديث وما دام ثمة تسليم بأن هناك ضعفاً فكرياً وتفككاً وتخلفاً عن ركب الحضارة (بعضهم يكابر ويرفض الاعتراف بذلك ويلوك عبارات إنشائية مثل الخيرية والوسطية والشهادة على الأمم. أ.هـ) فإن من الفطنة أن نرى ذلك كله فى مرآة الآخرين وأن نقرأ ما يسطرونه عنا وعن العلل (ج.علة) التى أوصلتنا لهذا الدرك ومنه نعرف لماذا تخلفنا وتقدموا، وهو السؤال الذى حيّر الأمير شكيب أرسلان ولم يجد له جواباً شافياً. ولا ندرى كيف يغدو التقدم العلمى غزواً فكرياً لأن العلوم (التجريبية) لا جنسية لها ولادين وكيف يصبح الانعزال والتقوقع دافعين للوصول إليه (=التقدم العلمى)، قد تتلّون العلوم الإنسانية بالمنبت الذى نشأت فيه أو تحمل بصمات البيئة التى ظهرت فيها- أما العلوم التجريبية فهى بعيدة عن ذلك وأرجو ألا يفهم من ذلك أننا ندعو للتحامى عن العلوم الإنسانية ونفيها واستبعادها، بل نحن نذهب إلى وجوب الاطلاع عليها ودرسها وتحليلها ومعرفة المناهج التى تتأسس عليها لنطبقها على تاريخنا وتراثنا ثم واقعنا ومجتمعنا. إن رافعى شعار الغزو الفكرى يقومون بعملية انتقائية فيختارون بعض المواد يضعونها فى الصدارة للتدليل على خطر الانفتاح على ثقافات الآخرين- مثل محاولة تشويه القرآن والسنة وشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وأول ما يتبادر إلى الذهن السؤال الآتى: على مدار الأربعة عشر قرناً الماضية توالت محاولات التشويه هذه ولم تتوقف بل ربما كانت فى القرون الوسطى أشد فداحة وأبشع صورة منها الآن، فهل نالت من الإسلام مثقال ذرة؟ وإذا صح أن هذا هو شأن بعض الكتابات فهل هو مبرر كافٍ للانعزال والانغلاق عن ثقافات الآخرين بجملتها وفى كافة فروع إبداعاتها؟

ونظراً لأن أصحاب مقولة «الغزو الفكرى» أو «التغريب» أو « الغزو الثقافى».. إلخ لا يملكون منهجاً واضحاً يصدرون عنه وعلى ميزانه تنضبط النظرية وتتحدد بدقة بالغة لتكتسب الحد الأدنى من المصداقية وبالتالى تصبح مقنعة نراهم يخلطون الأمور خلطاً عجيباً فيدعون أن تيارات الغزو الفكرى هى: الاستشراق، التبشير الصهيونية، الماسونية، أندية الروتارى، العلمانية، القوميات، التغريب، الوجودية، الفوضوية، القاديانية، البابية والبهائية.

وأن هذه التيارات صنعها الغزو الفكرى ليمر منها إلى الشعوب الإسلامية (ص٥١ من كتاب «الغزو الفكرى فى التصور الإسلامى» ملحق مجلة الأزهر جمادى الأول ١٤١٤هـ- ثم أعاد مصنفه نشره فى سلسلة «كتاب الأمة» التى تصدرها وزارة الأوقاف فى دولة قطر- الكتاب رقم /٣٨- بعد أن غيّر عنوانه إلى «فى الغزو الفكرى» وأضاف إليه فصلاً عنوانه «بدايات وبناء»)، وبعد أن تقرأ هذا (الرّص) العشوائى لا تدرى هل هذه التيارات والحركات هى سبب أم نتيجة، وهل هى التى شكلت ما يسمى بالغزو الفكرى أم هو الذى أثمرها؟ ومرة يسميها الكاتب حركات وأخرى تيارات لأ المصطلحات بعمومها مشوّشة فى ذهنه، ولم يوضح لنا ماهى الرابطة التى جمعت فى سلسلة واحدة:

الصهيونية والوجودية والعلمانية والقومية والفوضوية والقاديانية والبهائية؟ ويذهب أحدهم أن التغريب والغزو الثقافى بمعنى واحد، (لا ندرى لماذا لا يأتينا الغزو الثقافى أوالفكرى إلا من الغرب؟. أ.هـ) ويستطرد مؤكداً أن الهدف هو الشروع فى تدمير العقيدة الإسلامية والتشكيك فى الشريعة الإسلامية والمؤامرة على فصحى القرآن وتزييف تاريخ الإسلام وأن التغريب

حركة لها منهج ماركسى/ صهيونى/ غربى، مرة أخرى: كيف يتسنى لمنهج واحد أن يجمع بين هذه الأيديولوجيات الثلاث المتنافرة، فالماركسية أممية والصهيونية عنصرية وما هو المقصود بـ (الغربى) والغرب ينضوى على دول متعددة وقوميات شتى وثقافات كثيرة؟ فهناك الثقافة اللاتينية والأخرى الانجلو سكسونية والثالثة الجرمانية، وأكثر من مذهب دينى: الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية! ويستمر قائلاً: إن الحركة، تعتمد المذهب المادى فى تفسير الأحداث وتعتبر التوراة المرجع الأول للبحث العلمى وهنا يبلغ الخلط ذروته إذ كيف يجوز الجمع بين المذهب المادى الذى لايؤمن إلا بالمحسوسات وبين التوراة التى هى مجموعة من الأساطير والغيبيات!! ويعتقد الكاتب أن مايهدد الفكر الإسلامى ثلاثة أخطار: قانون نابليون- منهج دنلوب - الدارونية (كتاب : «أهداف التغريب فى العالم الإسلامى»- سلسلة قضايا إسلامية معاصرة- إصدار الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية- الأزهر- بدون تاريخ ولكن سنة الإيداع ١٩٨٧) ومع التسليم جدلى البحث أن قانون نابليون قد حل محل الشريعة الإسلامية (هذه إحدى الدعاوى الفاسدة والعارية من أى دليل التى يكررونها ويعيدون فيها ويزيدون حتى صدقها الناس مع أنها لا تمت إلى الحقيقة بأدنى صلة لأن الشريعة الإسلامية لم تكن مطبقة فى مصر منذ قرون طوال قبل غزو نابليون باستثناء الأحوال الشخصية ولم يكن يتمسك بها لا الحاكم ولا المحكوم فيما عدا الشعائر والطقوس الدينية. وكتب التاريخ والرحلات خير شاهد على ذلك وهذا يؤيد أن الإسلام مكانه الأوحد تلك الأماكن المبروكة، التى ذكرناها من قبل .أ. هـ) فإن ذلك أى إحلال قانون نابليون محل الشريعة قد تم فى مصر دون غيرها

من بلاد المسلمين وبالمثل منهج دنلوب في مجال التعليم، إذن كيف يشكل هذان الأمران خطراً على الفكر الإسلامي عامة، وهل مصر هي كل العالم الإسلامي؟ أم أن دنلوب كان مهيمنا على وزارات المعارف(= التربية والتعليم) في كل الدول الإسلامية ولم يكتشف ذلك سوى هذا الكاتب؟ ولماذا انتقى الكاتب الداروينية وأفردها بنوال شرف الخطورة على الإسلام مع أن غيره ممن صنفوا في الموضوع يضيفون إليها: الهيجلية، الفرويدية، الوجودية، العلمانية بل إن أحدهم تبرع فضم إليها الليبرالية، نعم الليبرالية وأمطرها بوابل من نيران هجومه (ص٤٧ من كتاب الأمة رقم / ٤١، ربيع آخر ١٤١٥هـ- أكتوبر ١٩٩٤ من منشورات وزارة أوقاف قطر). إذن يبين من كتابات رافعي مقولة الغزو الفكري أنه يعوزها المنهج العلمي السديد ومن ثم تميزت بالانتقائية وعدم ضبط المصطلحات وتشويش الفكرة وضبابية المفاهيم والخلط بين النتيجة والسبب والتناقض الواضح لابين كاتب وآخر ولكن فيما يسطره الكاتب نفسه. ولكن لماذا؟ لأن المقولة ليست معوجة فحسب بل فاقدة لأي أساس منذ البداية، فلا نضيف جديداً عندما نذكر أن الحضارة الإسلامية لم تتخلق ثم تزدهر إلا بانفتاح المسلمين على ثقافات الآخرين ترجموها ونهلوا منها وأوسعوها درساً وتمحيصاً، ولو أن أولئك القدامى قالوا ما يقول المعاصرون إن هناك مؤامرة على الإسلام وعقيدته وشريعته، وتصميماً على تشويه قرآنه ودراسته وسيرة رسوله وصحابته، لما حدث التفاعل ثم الازدهار والإبداع والتألق الذي بدأ منذ نهايات القرن الأول الهجري واستمر حتى نهايات القرن الخامس الهجري أو بدايات السادس الهجري. ولكن.. كيف السبيل حاليا للحاق بالآخرين في العلوم (التجريبية) والتكنولوجيا بالأخص

دون الانفتاح عليها وهضمها وتمثلها ودون الأخذ بالمنهج العلمي الذي أثمرها وهو منهج الشك وخلع أي هيمنة على العقل الإنساني مهما كانت؛ سواء من النصوص أو السدنة والموابذة (الموجودين في كل ديانة ودعك من التفرقة بين رجال الدين هنا وهناك أ.هـ) وخاصة أن العقل الإسلامي منذ ما يقرب أو يزيد على ثمانية قرون لا يعرف سوى الإذعان والتسليم والسمع والطاعة للنصوص وحراسها ؟

وأخيراً ما هي الطرق التي سيسلكها رافعو لواء الغزو والتغريب لمنع الثورة الهائلة التي حدثت في وسائل الاتصال والتي دخلت على الناس مخادعهم وحملت إليهم ثقافات الآخرين وفنونهم وطرائق معائشهم وأنساق علاقاتهم الأسرية والاجتماعية.. إلخ، وإذا كانوا قد نجحوا في منع ترجمة الكتب التي تتناول مواضيع محرمة فهل سينجحون في الوقوف في وجه هذه الثورة الجبارة؟

أم أن من الأفضل والأعقل أن نتخلى عن هذه المقولات المتحجرة التي لا ثمرة من وراء إطلاقها وترسيخها في أذهان الناس إلا المزيد من التخلف.

(٧)

ما إن تفتح كتاباً إسلامياً معاصراً (لم نقل «حديثا» لأن الفرق شاسع بين المعاصر والحديث. أ.هـ) حتى تطالعك بكثافة الألفاظ والتراكيب الآتية: الاستخلاف، إعمار الأرض، حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خيرية الأمة ووسطيتها وشهادتها على سائر الأمم- الاستكبار والعلو في الأرض،

التمكين فى الأرض- الغرباء المصلحون- وأعدوا لهم- صدأ القلوب - الوهن- الأكلة والقصعة وتداعى الأمم- معركة الفرقان- الفطرة- التوازن بين الروح والجسد- الجمع بين حاجيات الفرد ومتطلبات الجماعة- دفع الناس بعضهم بعضاً.. إلخ .. إلخ سواء كان الكتاب فى التربية أو الإعلام أو التاريخ أو الاجتماع أو الاقتصاد (لنا تحفظات على ما يسمونه ب الاقتصاد الإسلامى. أ.هـ).

الغالبية العظمى من هذه الكتب- باستثناء قلة قليلة- تلوك هذه العبارات ومن ثم تردد نفس المعانى وذات المفاهيم رغم اختلاف عنواناتها والمادة التى تعالجها أو الموضوع الذي تبحث فيه، ومن ثم فهى لا تراوح مكانها ولا تغادر الدائرة المغلقة التى تتحرك داخل قطرها وهى النصائح والأخلاقيات والمواعظ التى توجل منها القلوب وتذرف لها الدموع، والاعتماد على الغيبيات والماورائيات واللامحسوسات، وضرورة ربط كل مايدور على الأرض إن على المستوى الفردى أو المجتمعى وفى كل الشئون بدون تفرقة ربطها على بكرة أبيها بقوى غير منظورة وأنه لن ينصلح أى معوج إلا إذا كانت العلاقة مع هذه القوى الجبارة على أحسن ما يرام ولتصبح (=القوى) فى ذروة الرضا.!!

فإذا سألت أحدهم وفيهم أكاديميون وأساتذة جامعات وحاملو إجازة الدكتوراه من أرقى جامعات أوروبا وأمريكا: مابال أمم أخرى علاقتها مع هذه القوى بالغة السوء بل وبعضها ينكر وجودها ويسخر ممن يؤمن بها ومع ذلك فهى فى القمة؟ردّ عليك بثقة تغبطه عليها: هذه الأمم لا تدخل فى حساب القوى ولا تعبأ بها فلذا تتركها تستوفى حظها الآن ولكن فيما بعد ستوفيها ما تستحقه من جزاء!!! مع أن المنطق يحتم أن تكون الأمة التى ترعاها القوى

وتكلأها بعنايتها وتفضلها على غيرها من الأمم هى الأقوى والأرقى.

وتكرار الكتاب الإسلامي المعاصر لتلك التعبيرات والكلمات يشى بأن مؤلفيها أو مصنفيها فى عزلة تامة عن علوم العصر وخاصة العلوم الإنسانية وبالمثل عن التطورات المذهلة التى ضربت العالم الإسلامي فى كافة مناحيه: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمعرفية بل والبيئية والسكانية (٧٠٪ من سكان غالبية الدول العربية هم دون الخامسة والثلاثين وهم الذين يشكّلون الجيل المهمش المحبط. أ.هـ)، بحيث لم يعد الخطاب التقليدى الكلاسيكى الذى يعتمد تلك الاكلشيهات ملائماً وهذا يفسر لنا لماذا أن هذه الكتب التى تخرج من المطابع يومياً بمئات العناوين وتطبع منها عشرات الألوف من النسخ وتمولها دول الأرصدة الأسطورية، نقول لماذا لم يظهر منها كتاب واحد فيه حل ناجع لمشكلات المسلمين المتفاقمة؟

ولا يصلح توهينا أو تفنيداً لاعتراضنا على ترديد تلك العبارات والمدلولات من قبل الكتاب الإسلامى أن السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم هم الذين بدأوها إذ لأولئك عذرهم فقد كانت الثقافة المهيمنة والمسيطرة فى الفترة القروسطية هى الثقافة الثيولوجية المتمحورة على الغيبيات والعوالم اللامرئية والكائنات غير المنظورة وضرورة التبعية المطلقة لها وتسليم كافة المقاليد إليها ووضعها بين يديها وحتمية الانقياد لأوامرها الصوارم للفوز بما يسمى تارة «الخلاص» بعد التردى فى «الخطيئة» مروراً بـ «الفداء» ويسمى تارة أخرى «الخلافة فى الأرض» بعد «نسيان العهد» و «الافتقار إلى العزم» ومن استقام فجزاؤه مالا عين رأت ولا خطر على قلبه.

تلك كانت الثقافة السائدة بل والحاكمة والمتحكمة فى القرون الوسطى

هنا وهناك وهذا ما دفع السلف الصالح إلى توظيف تلك العبارات وإلى تقديمهم للمفاهيم الثيولوجية.

أما حالياً فقد تغير الفضاء المعرفى تماماً وتبدل الأفق الثقافى بالكلية وتقهقرت المعارف الثيولوجية وكادت أن تختفى منذ عصر التنوير وحلت محلها سيادة العقل الذى لا يعترف بأى سلطة سواه.

كل هذا كان قمينا بأن يغير الكاتب الإسلامى المعاصر طروحاته بداية بالأسلوب وانتهاء بالمفاهيم والمدلولات أى بالشكل والموضوع معاً ولن يتأتى له ذلك إلا بأمرين:

أولهما: الخروج من الشرنقة التى نسجت حول الذات والتخلى عن النظر العدمية التى ترفض مجرد الإطلال على ثقافات الآخرين وحتمية دراسة مالدى الآخرين دراسة معمقة فإذا وجدنا فيه ما يوافقنا فلا حرج من قبوله وهو ما فعله من عاشوا حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية.

وآخرهما: الحرص على متابعة كل ما يستجد على العلوم الإنسانية- بوجه خاص- فى النصف الأخير من القرن العشرين الميلادى لأنها سوف تساعدنا على قراءة النصوص قراءة منهجية علمية الأمر الذى سوف يتيح لنا تحديد المواقف بدقة متناهية بدلاً من التيه الذى نتخبط فيه.

(٨)

ذلك أننا نؤمن أن القرآن الكريم لغته عالية مرموزة مليئة بالكنايات والمجاز والاستعارات والمضمرات والشفرات والمتشابهات والإشارات

والتنبيهات ومن تم اتسع لتفسيرات أهل العصمة والعدالة (الشيعة) وتفسيرات أهل العدل والتوحيد (المعتزلة) والتفسير الخارجي (نسبة إلى الخوارج) بخلاف التفسير الصوفي والتفسير الباطني (الاسماعيلي) والتفسير الإشاري والتفسير الفقهي والتفسير العلمي، كل ذلك بداهة بخلاف تفسيرات «أهل السنة والجماعة».

كما أن عنوانات بعض كتب التفسير تقطع بأن النص الأصلي أو النص الأم قد بَدَهَ (في المعجم الكبير- الجزء الثاني- حرف الباء: بدهه الأمر أي فجأه) المفسرين وأدهشهم وأثار عجبهم (في المعجم الوسيط: العجب روعة تأخذ الإنسان عند استعظام الشئ ويقال هذا أمر عجب)، من تلك العناوين على سبيل المثال: «غرر الفوائد ودرر القلائد» الشريف الرضي، «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» النيسابوري، «لباب التأويل في معاني التنزيل» الخازن، «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»- البيضاوي، «مفاتيح الغيب» الرازي، «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» الثعالبي. ولعل القارئ قد لاحظ ألفاظ: أنوار- أسرار- الدرر- القلائد- الجواهر- لباب- غرائب- مفاتيح- الغرر (في المعجم الوسيط: الغرة من كل شئ أوله وأكرمه)، التي وردت في أشهر تلك المؤلفات مما يقطع بأن مصنفيها شعروا بأنهم أمام كتاب من نوع فريد باهر (في المعجم الكبير: بهر النجم أي أضاء، وبهر فلان: برع وكمل من كل فضيلة وجمال) ملئ بكل تلك الأمور (الأسرار والغرائب والدرر والجواهر.. إلخ) وكل هذا راجع إلى لغته الفذة المعجزة ومواضيعه الثرة (في المعجم الكبير- الجزء الثالث- حرفا التاء والثاء: ثر السحاب أي كثر ماؤه وغزر، قال عنترة: جادت عليها كل عين ثرة: فتركن كل قرارة كالدرهم)، وقد اشترط السلف الصالح في

المفسر عدة شروط أهمها صحة الاعتقاد والتجرد من الهوى والعلم باللغة العربية وفروعها وبعلوم القرآن مثل الناسخ والمنسوخ وأسباب التنزيل وأنواع السور مثل المكي والمدني والنهاري والليلي.. إلخ مع الفطانة ودقة الفهم، ولا شك أن تلك الآليات كانت متوافقة مع فضائهم المعرفي، ولكن التجمد عليها آن له أن يتوقف وأن ينضاف إليها العلوم (الإنسانية) التي استجدت في زماننا مثل: التاريخية، الفيللولوجي (فقه اللغة)، الابستمولوجي (علم المعرفة) ، والألسنية (لينجو يستك)، طونولوجيا المعنى (أنماط المعنى)، اللوجو سفير (الفضاء اللغوي الذي يصب فيه أهل كل لغة تجاربها التاريخية وتطورها وأطوار نموها وأصنافها من بداوة وتحضر ورعوية وريف.. إلخ) والانثربولوجي (يترجمها البعض خاصة في المغرب ولبنان ب الإناسة) والبنبوية.. إلخ وليس القصد من ذلك هو تقليد الفرنجة إنما لإن هذه العلوم أصبحت من ألزم اللوازم في دراسة النصوص لاستخراج معانيها وأسرارها ورموزها وشفراتها ومعرفتها المعرفة الحقة بل وحل المعضلات القائمة سواء بداخلها أو من حولها والباقية بغير حل حتى الآن مثل «مشكلة الأحرف السبعة» التي جاء بها الحديث الصحيح الذي أخرجه الستة (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منها) هذا الحديث الذي أشكل معرفة المراد منه على المفسرين كبارهم وصغارهم من القدامى والمحدثين حتى قيل إن ابن الجزري ظل أكثر من ثلاثين عاماً يقلب المسألة على وجوهها ولما طرح لها حلاً قبله البعض ورفضه آخرون (تاريخ القرآن- د. عبد الصبور شاهين- الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م). ومثل «مشكلة رسم المصحف»: هل من الفرض اللازم بقاء الألفاظ في المصحف

على ما كانت عليه منذ الرسم العثمانى أم تجوز كتابتها فى ضوء قواعد الإملاء الحديثة؟

انقسمت آراء الفقهاء إلى ثلاثة مذاهب:

الأول: يرى الالتزام برسم مصحف عثمان وعدم العدول عنه إلى غيره.

الثانى: جواز كتابة المصحف بالرسم الحديث أى القواعد الإملائية المعاصرة.

الثالث: يرى جواز الكتابة وفق القواعد الحديثة لضرورة مثل تعليم الصغار، (رسم المصحف بين التحرر والتحرز، د/ زيد عمر مصطفى- مجلة الدارة- وهى سعودية- العدد الثالث، السنة العشرون، جمادى الآخرة ١٤١٥هـ). هاتان المشكلتان وأمثالهما نحن نقطع بأن الباحثين المعاصرين لوكانوا على اطلاع غزير ودراية تامة بالعلوم الحديثة التى ذكرنا بعضها فيما سلف لتوصلوا إلى حل لها جميعها، هذا بالإضافة إلى تفسير صحيح لكثير من الكلمات التى غمضت حتى على بعض الصحابة مثل « الكلالة » و « أبّاً » والأهم من ذلك كله هو الكشف عن دلالة النص سواء من داخله أو بتشريح الظروف المحيطة به والعلاقة بين الشفاهى والكتابى وكيفية تحول النص من هذه المرحلة إلى تلك ومتى تم ذلك وماذا حدث فى فترة الانتقال بينهما، والنص الأصلى كما هو ثابت تاريخياً الأصل فيه كان المشافهة والتلقين والحفظ فما هو دور الكتابة إذن وهل اقتصر دورها على صيانة النص من الضياع.. إلخ يحظر السدنة والموابذة الذين يُحكمون قبضتهم على فضاء المعارف الدينية مجرد الاقتراب من تلك العلوم واستعمال آلياتها فى مجال الدراسات القرآنية وذلك لسببين:

أولهما: أنهم غير مؤهلين لدراسة تلك العلوم وبالتالى فهم يفتقرون إلى الصلاحية للحكم على النتائج التى يتوصل إليها الدارسون لتلك العلوم والمستخدمون لمناهجها وأدواتها.

وآخرهما: أن هذه النتائج سوف تكون مناقضة للمعارف التى تربوا ثم شابوا عليها والتى يسبغون عليها قداسات زيوف أى أنها سوف تدخل فى دائرة المستحيل التفكير فيه حسب منظورهم.

ولكن لكل ليل آخر ومهما طال ففى نهايته سيطلع الفجر، وسيأتى اليوم الذى تقتحم فيه هذه العلوم معاقل السدنة والموابذة فهذه سنة الحياة وكل ما نرجوه ألا يطول انتظارنا ذلك اليوم وعندها سيتغير أفق المعارف الدينية الحالي وهو الشرط الذى نراه لازماً لأى إصلاح دينى أو تجديد للفكر الدينى.

(٩)

نحن نذهب إلى أن الدين ثورة ضد العقائد الفاسدة والأوضاع المتردية وانقسام المجتمع إلى: طبقة مستغلة تعيش فى ترف وبلهنية، وطبقة مستغلة ومسحوقة تعيش على الفتات محرومة من كل شئ؛ ولذا فما إن يظهر نبى (=رسول) أى نبى حتي تتحدد مواقف كل واحدة منه، فالأولي تناصبه العداء وتحاربه ويسميها القرآن «الملأ» وهم الذين يملأون العيون رواءً ومنظراً والنفوس بهاء وجلالاً (مفردات غريب القرآن/ الراغب الأصفهانى) وهم الوجهاء والأعيان والصفوة أو النخبة التى بيدها مقاليد كل الأمور: السلطة والمال والوجاهة- والأخرى وعبّر القرآن عن أفرادها بـ "الأراذل" وهم الفقراء والمهمشون والمحبطون والمساكين والمعوزون، وهؤلاء يدركون بفطرتهم

السليمة أن الرسالة التى انبثقت فى محيطهم هى ثورة ستعيد لهم حقوقهم السليبة وستردع (الملأ) عن طغيانهم وجبروتهم ومن ثم فلا يترددون (=الأراذل) لحظة واحدة فى الاستجابة لها والانخراط فى صفها (إذ ليس لديهم ما يخسرونه سوى القيود التى تكبلهم.أ.هـ).

وهذا ما حدث مع النبى العربى محمد عليه الصلاة والسلام إذ ما إن صدع بدعوته حتى هرع إلى الإيمان بها: العبيد والجوارى والموالي والذين يحيون عشوائياً على أطراف المجتمع وحوافيه وكل المستضعفين بكافة أنماط الاستضعاف، القبلية والمالية والنسبية مثل:

زيد بن حارثة، عمار بن ياسر وأبوه ياسر وأخوه عبد الله وأمه سمية (طعنها أبو جهل فماتت فغدت أول الشهداء فى الإسلام وهذا شرف انفردبه الأراذل. أ.هـ) وبلال الحبشى وصهيب الرومى وعبد الله بن مسعود (أول من أفشى القرآن بمكة قبل الاستعلان بالإسلام على يد حمزة وعمر وهذا هو الشرف الثانى الذى يحققه المستضعفون أ.هـ) وخباب بن الأرت(كان قيناً أى حداداً وسلقه بعض أفراد الملأ بسبب إسلامه . أ.هـ) وعامرين فهيرة وأبى فكيهة والجوارى: لبينة وأم عبيس والنهدية وزنيرة (قدمت نور عينيها إعلاءً لشأن الثورة التي أصبحت من جنودها وهذا هو الشرف الثالث للأراذل .أ. هـ) ولم يكن محمد عليه السلام وحده فى ذلك بل سبقه (فى التاريخ لا فى الرتبة أو المنزلة نذكر ذلك حتى نقطع السبيل على المتنطعين الذين لا يتمسكون إلا بالشكليات الهيفك «فى المعجم الوسيط: الهيفك.. الحمقاء».أ.هـ) الأنبياء والرسل وقد قص علينا القرآن حكاياتهم: (قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) ٦/٧ والخطاب موجه إلى هود

رسول عاد ، (وقال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) ٧/ ٧٥ وصالح أرسل إلى ثمود ، (فقال الملأ الذين كفروا من قومه..) ٢٣/ ٢٤ وهو نوح- وحادّ محمداً عليه الصلاة والسلام وحارب رسالته ووقف فى وجهها ملأ قريش المستكبرون والمستهزئون منهم: أبو جهل وأبو لهب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن عدىّ والوليد بن المغيرة المخزومى (أبو خالد بن الوليد وقد وصفه القرآن بأن له مالاً ممدوداً وأنه عنيد مستكبر. أ. هـ)، وأبو أحيحة سعيد بن العاص الأموى وأُبىّ وأمية ابنا خلف والعاص بن وائل السهمى والنضر بن الحارث.

هكذا مع كل رسول (أونبى يعاديه (الملأ) لأنه سيحرمهم امتيازاتهم التى هى نتيجة عرق (الأراذل) الذين يدركون أهمية الرسالة بالنسبة لهم فيؤازرونها بأرواحهم ودمائهم وجلودهم وعرقهم.. إلخ.

ولكن للأسف- سرعان ما تتحول الرسالة الثورية أو الثورة الرسولية إلى مؤسسة لها رجالها وتراتبيتها وطقوسها وشعائرها ومراسمها وأسرارها، ورويداً رويداً تخبو النضارة التى كانت النصوص مفعمة بها وينطفئ الحماس ويبرد ويتجمد ثم تتحول النصوص إلى حجج على أيدى السدنة والموابذة الذين يُسمون أحباراً مرة وقساوسة ومطارنة وبطاركة مرة أخرى وقراءً ووعاظاً وأئمة ودعاةً مرة ثالثة والذين يدّعون بكل جرأة على الحق أنهم نواب الرب تارة وورثة الأنبياء تارة أخرى وهو ليس أكثر من خلاف لفظى (يمخرق البعض فيحاول إظهاره بغيرذلك. أ.هـ) وتغدو النتيجة الحتمية لهذه الادعاءات هى احتكار «المؤسسة» لـ (النصوص) فهى وحدها صاحبة الحق فى تفسيرها

وتأويلها وشرحها وإرشاد (الرعية) إلى الطريقة المثلى لتطبيقها. وهذه المؤسسة كما ثبت على مدار التاريخ فى الديانات الساميّة الثلاث تتعاون مع السلطة الحاكمة وتقوم بينهما علاقة جدلية:

المؤسسة تمنح السلطة بركاتها وتطويباتها ودعواتها لتضفى عليها المشروعية التى حجبها عنها المحكومون، والسلطة بدورها تغدق على المؤسسة: الرواتب والجوائز والمنح والهدايا والعطايا والبدلات والميزات.. إلخ؛ ومن ثم تعمل المؤسسة بكل ما أوتيت من قوة على طمس الجوانب المضيئة فى «النصوص» وتطويعها لصالح أصحاب السلطة: السياسية والمالية والاجتماعية...

وهنا تجيئ مهمة «اليسار الإسلامى» وهى إعادة الثورية للدين والنصوص والتى تضافرت عوامل عديدة على إخفائها ورميها فى مربع النسيان وكشف ادعاءات المؤسسة وفضح فساد البضائع التى تسّوقها وانتهاء صلاحية السلع التى تعرضها وإثبات أن الإسلام هو ثورة على الظلم بمختلف ضروبه وتقديم عشرات بل مئات النصوص سواء من القرآن أو السنة التى تؤكد ذلك وتثبته.

وإذا كان القرآن قد ضمن لنفسه الحفظ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ٩-١٥، فإن حفظ المسلمين موكول إلى أنفسهم ومنوط بهم دون تدخل أى قوى خارجية (إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة) كما قال عمر بن الخطاب، ومن ثم فإن القاعدة الشعبية العريضة (التى يعيش اليسار الإسلامى لاهمومها ومشكلاتها فحسب بل إنه يقيم فى وسطها وداخل محيطها: فى أحيائها البائسة وبناياتها المتداعية وشوارعها المتربة المطينة ومناطقها المحرومة من أبسط المرافق مثل مياه الشرب النظيفة. أ. هـ)، عليها

بسواعدها أن تحطم قيودها وتأخذ حقوقها بأيديها وأن تقف فى وجه الطواغيت (الملأ) الذين يمنعونها حقوقها كل حقوقها وبيدها السند القوى، نصوص الرسالة الثائرة أو الثورة الرسولية التى تحاول المؤسسة الدينية إخفاءها والتلاعب بها، ولن يهدأ لليسار الإسلامى بال حتى يعود الإسلام كما كان ثورة على الظلم بكل مظاهره وحتى تنال الطبقة المسحوقة جميع حقوقها، فهى لا تنسى أن أسلافها «الأراذل» هم الذين سددوا الفاتورة من أرواحهم ودمائهم وأبشارهم وأرزاقهم للتميكن للإسلام.

(١٠)

نحن نؤمن أن الشعب هو مصدر السلطات جميعها وأن القاعدة الشعبية العريضة وحدها تملك سن القوانين ولارقابة عليها فى ذلك من أحد ولا هيمنة من نص، ولكن القوانين التى تصدرها تدور فى فلك الذرى العالية والمعانى السامية والقيم الرفيعة التى جاء بها الإسلام مثل كفالة حرمة الإنسان فى نفسه وماله وأنه أكرم على الله من الكعبة بنص الحديث النبوى، وضمان حرياته، والحرص على كافة حقوقه، والمساواة بين الناس وعدم التمييز بينهم لأى سبب، والعدل من الحاكم والقاضى والعدالة الاجتماعية الشاملة.. إلخ وأن الحكومة مدنية لاشبهة فيها لأية ثيوقراطية وأن رجال الدين لاصلة لهم بالحكم لا من قريب ولا من بعيد وأن وظيفتهم الرئيسة هى الوعظ والإرشاد وتدريس الدين فى معاهده الخاصة به فحسب.

وأن الحاكم موظف مدنى ينتخبه الشعب بالطريقة الديمقراطية المناسبة وأنه ليس ظل الله فى الأرض ولا يلبس قميصاً قمّصه الله إياه، ولا تحيط به

كوكبة من رجال الدين ولا حتى واحد منهم، وأن المال العام هو مال المواطنين جميعاً دون استثناء وليس للحاكم فيه سوى راتبه المقنن الذى يحرم عليه تجاوزه تحت أى ظرف.

ولا تختص أسرة بتخريج ولاة الأمر، بل كل مسلم يرى فى نفسه الصلاحية لذلك يرشح نفسه للولاية العامة، حتى لو كان أسود رأسه كزبيبة (هناك حديث نبوى صحيح يأمر المسلمين بطاعة الحاكم حتى ولو كان عبداً حبشياً رأسه كزبيبة- أى أن الرسول يُجيز من كانت هذه صفاته أن يتولى الإمامة العظمى أى رئاسة الجمهورية بالتعبير المعاصر. أ. هـ) ومدة الولاية محددة فى الدستور وليست ممتدة مادام على قيد الحياة وليس من حقه أن يوصى لأحد من بعده بالحكم فهذا ليس له ولا لأسرته ولا لأهل الحل والعقد بل للشعب فقط. وللشعب أن يعزله إذا خالف الدستور إنْ فى نصه أو روحه وطرق عزله مسطورة فى الدستور، والقاعدة الشعبية رقيبة عليه رقابة صارمة فليس الحكم ميزة أو مغنماً له أولأسرته أو حاشيته أو نصاره أو حزبه.. إلخ بل هو التزام ثقيل عليه أن يؤديه بمنتهى الأمانة.

نحن لا نؤمن بأنظمة «البيعة»و «أهل الحل والعقد»و «أهل الاختيار» و «مجلس الشورى» و «ولاية العهد» و «ولاية التغلب».. إلخ، فلقد أدت دورها فى زمن كانت متوافقة معه وملائمة لموجباته واندثرت بحسناتها وسيئاتها، بمناقبها ومثالبها والذين ينادون بعودتها هم المشدودون للفترة الذهبية التى انقضت إلى غير رجعة والذين لا يدركون المتغيرات التى طالت بلاد المسلمين من المحيط إلى الخليج ومن الشمال إلى الجنوب سواء فى داخل مجتمعاتهم أو أوضاعهم الدولية، والذين ليست لهم نظرة مستقبلية بل

هم يغمضون عيونهم عن الطفرات التى تحدث يومياً فى العلوم التجريبية بل والإنسانية وفى وسائط الاتصال التى تجعل العيش فى أوهام الماضى ضرباً من الانتحار وطريقاً إلى الانقراض.

نحن نؤمن بالمجتمع المدنى وتداول السلطة بالديمقراطية التى هى حكم الشعب بالشعب لصالح الشعب ولا نرى الشورى بديلاً لها أو نظيراً أو مثيلاً ونذهب إلى أن الشورى أدت فعاليتها بدرجة أو أخرى حسب الظروف وكانت مناسبة لعصر معين ومجتمع محدد وبيئة بذاتها وكانت لها إيجابياتها وسلبياتها ، إنما أبداً وبصورة قاطعة لاشك فيها ولا لبس لن توائم مجتمعاتنا المعاصرة وسيكون تطبيقها ترسيخاً للتخلف والذين يطالبون بتطبيقها ينحازون لصالح الحكام ويقفون ضد المحكومين (لمزيد من التفصيلات نرجو الرجوع إلى الدراسة المفصّلة التى نشرتها لنا مجلة «القاهرة» فى عددها رقم ١٢١ - ديسمبر ١٩٩٢ بعنوان «تاريخية الشورى») ، وليس معنى ذلك أن تجيئ ديمقراطيتنا صورة فوتو كوبى» من الديمقراطية الغربية، ففى كتابات لنا سوابق ناشدنا علماء الاجتماع والسياسة أن يبدعوا لنا نظاماً يتفق مع أحوالنا ويُستقى من تاريخنا القريب وخاصة أنظمة الطوائف والحرف والنقابات بل والطرق الصوفية فهذه كلها كانت منافذ عبّرت من خلالها القاعدة الشعبية آنذاك عن طلباتها ودافعت عن حقوقها ونظمت بموجبها انتفاضاتها عندما كان يشتد عليها ظلم الولاة والمتمولين.

نحن لا نؤمن بـ «القوميات» ولا نروّج لها ، إنما من ناحية أخرى لانشجبها ولا نعاديها ، ومن حق أصحابها الدعوة لها بشرط ألا يجر ذلك إلى أى نوع من

العنصرية أو الشعوبية أو العصبية أو العرقية، ومبعث رفضنا للقوميات إيماننا العميق بوحدة الجنس البشرى: كلكم لآدم وآدم من تراب، ولا فضل لعربى على غير عربى إلا بالتقوى؛ مع ملاحظة أننا نضيف إلى التقوى مفهوماً جديداً هو خدمة المجموع والحرص على أداء العمل العام. ونؤمن بالوطنية ونحب مصر ونعمل على رفعتها ونحث كل مسلم على حب وطنه والسعى لنهضته فقد أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه عندما هاجر من مكة نظر إليها وقال: (الله يعلم) أنك أحب بلاد الله إلىّ ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت وأن المهاجرين الأوائل عندما وصلوا إلى يثرب (المدينة) مرضوا من شدة شوقهم لأم القرى وإبان برحاء الحمى كانوا ينشدون أشعاراً كلها حنين مستعر إليها وهذه هى الوطنية.

نحن نؤمن بأن الأيادى المنتجة هى قوام المجتمع وتستحق التقبيل ويحبها الله ورسوله إذ عليها تقوم عمارة الدنيا التى هى الطريق الموصل إلى استقامة أمور الدين كما أكد ذلك الإمام الغزالى، لذا فنحن ننحاز إلى صفها وندافع عن حقوقها ونضعها فى رتبة لا يتطاول إليها غيرها مهما كان شأنه. وبالمقابل فإن الغنى هو أحد البواعث الدافعة للطغيان والتجبر و الاستكبار. (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) ٩٦/٦ . ٧ وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يستعيذ من الغنى المُطغى ولعمق حبه لصاحبه عبد الرحمن بن عوف كان كلما يراه يقول له:

(لن تدخل الجنة إلا حبواً يا ابن عوف) يحضه بذلك على الإقدام على مزيد من البذل فى سبيل الصالح العام.

ومن ثم فنحن ننتهى إلى قاعدة أكيدة وهى أن صلاح المجتمعات الإسلامية ونهضتها من كبوتها ثم ازدهارها كل هذا لن يتأتى إلا إذا تولى المنتجون وحدهم مقاليد الحكم.

(١١)

نحن نؤمن بأن المواطنين متساوون فى الحقوق والواجبات وأنهم كأسنان المشط ولافرق بينهم بسبب الدين أو المذهب السياسى أو اللون أو الموقع الجغرافى (فمن يقيم فى حلايب يتساوى مع من يقيم فى القاهرة) أو الطبقة أو الأصل ..إلخ وأنهم على بكرة أبيهم يتمتعون بـ «حق المواطنة» الذى لايتأثر بأى أمر مما ذكرناه.

وأن أقباط مصر ليسوا فى ذمة مسلميها كما أن مسلمى مصر ليسوا فى ذمة قبطها وأنهم جميعاً فى ذمة الدستور والقوانين.

ومذهبنا أن المسلمين كما الأقباط «أهل كتاب» ودليلنا عليه من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ومن أقوال أئمة أعلام.

* * *

نحن نرى أن شعار «الدين لله والوطن للجميع» قاصر ومن ثم فإننا نرفضه، أما أن الدين لله فهذا تحصيل حاصل لأنه بنظر المؤمنين كل شىء لله؛ إن الدين كما قررنا فيما سلف علاقة خاصة بين المخلوق والخالق والإنسان هو المسئول عنها والذى يقوم بواجباتها ويجنى ثمراتها ، وأن الدين له أماكنه

الخاصة به والتى أوضحناها وله مجالاته المحددة سبق أن ذكرناها والتى يحاول أصحاب المصالح ومبتغو المكاسب وعبّاد المنافع أن يوسعوها فتختلط الأوراق وتفسد الأمور جميعها.

أما عبارة «الوطن للجميع» فهى فضفاضة رجراجة غير منضبطة لإن شخصين لهما عقار يملك أحدهما فيه ٢٣ قيراطاً والآخر قيراطاً واحداً ومع ذلك فيصح القول إن العقار لهما معاً.

* * *

نحن نؤكد أن رجال الدين مسلمين ومسيحيين لايعالجون ما ينفجر من أزمات بالصراحة والحزم المطلوبين وأن القوافل التى تسيّرها دوائر شئون التقديس وتنوّر فيها العمائم البيض بجانب العمائم السود ويفرط أصحابها إبّانها فى أداء لعبة «التبويس» السمجوجة وكذا موائد الإفطار فى رمضان التى يقيمها بعض الكنائس وعدد من أثرياء أعيان القبط كلها نوع من الشعبذة والمخرقة والهدف منها: طمأنة الطاغوت الحاكم بأنه «كله تمام يا افندم»، ويصيح اليسار الإسلامى أنه قد آن الأوان للنفاذ إلى جذور المشاكل التى هى الآن متفاقمة - فما بالك لو تقادم عليها العهد - وذلك لحلها والقضاء عليها قبل حدوث الطوفان أو الزلزال الذى يهدد مستقبل الوطن.

* * *

ورغم أن لنا رأياً فى «رجال الدين» - أى دين وعلى طول التاريخ - سبق أن سطرناه مراراً وتكراراً ولعل القارىء المتتبع لكتاباتنا قد حفظه - فإننا من خلال متابعتنا لما يجرى على الساحة الدينية بشقيها فقد رأينا بعض صغار

رجال الدين المسيحى فى مصر حاول القيام بدور إيجابى فى خدمة القاعدة الشعبية العريضة من القبط والقضاء على مظاهر فساد وإفساد لم تعد خافية لكل ذى عينين (بالمناسبة نحن نرفض عبارة الشعب القبطى التى يرددها بعض أصحاب العمم السود إذ أن فى مصر شعباً واحداً هو الشعب المصرى. أ .هـ .) ولكن رئاسة شئون التقديس نظرت إليهم شذراً وعاملتهم بطريقة – فى نظرنا – خالفت تعاليم المسيح عيسى عليه السلام الذى بشر بالمحبة والسلام والعفو والصفح.. الخ ونحن نهمس فى أذنيها المقدستين ناصحين لها أن تكف عن ذلك ونطلب من المتنفذين فيها أن: يوسعوا آفاقهم ويطلعوا على المستجدات التى طرأت على الثيولوجيا المسيحية خاصة فى العقود الأخيرة ونكتفى بأن نذكّرهم باضطرار الفاتيكان إلى تعديل موقفه من «لاهوت التحرير»، لأننا نخشى أن نستيقظ يوماً ونجد أن الكنيسة الأرثوذكسية المصرية التى ظلت لقرون طويلة مضرب المثل فى الوحدة والاتحاد قد انشطرت شطرين ونفاجأ بوجود «الكنيسة الأرثوذكسية المستقلة» على غرار «الكنائس الأفريقية المستقلة»، لأن هذا لن يكون فى صالح الوطن وسيعود على مصر التى هى فى بؤرة شعورنا دائماً بأفدح الأضرار.

* * *

نحن نشجب اتهام أقباط المهجر بـ «الخيانة» لأننا ننفر من التلفظ بهذه الكلمة كلما نشب خلاف فى الرأى فهم مصريون متمسكون بمصريتهم فإذا لمسنا منهم شططا فى الفكر أو الموقف أو تقييم الأمور دعوناهم بهدوء وعقلانية إلى إعادة النظر والمراجعة ونقدم الأدلة المقنعة على خطئهم وخطلهم وبالتالى نتيح لهم الفرصة لإقناعنا بصحة مايفعلون أو يكتبون.

ولكننا من زاوية أخرى نأخذ على إخوتنا أقباط المهجر سواء في أوروبا أو أمريكا أو كندا الاكتفاء بـ (الحب الكلامي المجاني)... فرغم أنهم يحوزون مليارات الدولارات فعندما حدثت كارثة المقطم التي ضربت منشية ناصر وعزبة الزبالين اللتين يسكنهما البؤساء والتعساء والمحرومون من القبط لم يرسل أقباط المهجر المرفهون والمنعمون والذين يعيشون في بحبوحة من العيش لم تكن تخطر لكثير منهم على بال ولم يكونوا يتوقعونها ولا في الأحلام - لم يرسلوا فلساً واحداً لمعاونة المنكوبين ويبدو أنهم اكتفوا بما أصاب أولئك المطحونين من نعمة إثر الزيارة القدسانية المبروكة التي كان (حظهم من السماء) أن نالوها.

وليعلم إخوتنا أقباط المهجر أن المحك الرئيسي الذي يزن به اليسار الإسلامي ادعاء أي مصري حب مصر ليس هو الكلام أو الخطب أو المسيرات أو الندوات أو المحاضرات أو إعلانات الصحف التي تكلف عشرات الألوف من الدولارات (كان أولى بها سكان المنشية والعزبة وأضرابهم.أ.هـ.)...الخ إنما ما يقدمه من عون حقيقي للوطن وأبنائه المسحوقين.

لقد كان اليسار الإسلامي ينتظر من المواطنين أقباط المهجر وفيهم مليارديرات ومليونيرات أن يبادروا ويردوا جميل مصر التي ربتهم وعلمتهم ومنحتهم الشهادات والكفايات التي فتحت أمامهم أبواب الغنى والعز والبلهنية ويتفقوا مع إحدى شركات المقاولات الكبرى على إعادة بناء عزبة الزبالين ومنشية ناصر لينقذوا سكانهما وهم إخوتهم في الوطن وفي العقيدة

من الظروف التعسة التى يعيشونها والتى لايرضاها أولئك المنعمون المرفهون لحيواناتهم الأليفة التى يقتنونها فى مساكنهم السوبر اللوكس.

* * *

وأخيراً فى نطاق هذه النقطة:

إن كل من قرأ تاريخ مصر منذ غزتها جيوش الفتح العربى الإسلامى بقيادة عمرو بن العاص، تأكد لديه أن الفتنة بين المسلمين والقبط لاتستيقظ وتطل بوجهها الكئيب الكالح إلا بفعل مؤثرات خارجية، لأن المصرى صاحب أعرق حضارة عرفها التاريخ - ومهما كان نصيبه من التعليم - يدرك فى أعماق نفسه أن الدين مسألة ذاتية لاعلاقة ولاتأثير ولافعالية لها فى مجال التعامل مع الآخرين، وبمعنى أوضح عدم تقييمه إياهم (= الآخرين) من منطلق العقيدة الدينية التى يؤمنون بها بل من قاعدة أخرى مغايرة فى سبر سلوكهم تجاه مواطنيهم ومدى عطائهم لوطنهم.

وَصْلَة

بعد أن فرغنا من شرح أهم قواعد عقائد اليسار الإسلامى، نقدم للقارئ فيما يلى ما يمكن أن نسميه تطبيقاً عملياً أو كتابياً لها وهى ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

يضم خمسة وعشرين مقالاً ظهرت فى مجلة «اليسار» من ديسمبر ١٩٩٢ حتى ديسمبر ١٩٩٤ بعنوان ثابت (إسلام لا كهانة) ولكل مقال شهرى عنوان مستقل.

ولما كان من أهم أخلاقيات «اليسار الإسلامى» الاعتراف لكل صاحب فضلٍ بفضله فإننى أقر أن العنوان الثابت (إسلام لا كهانة) هو من إبداع الزميل الفاضل أ. حسين عبد الرازق رئيس تحرير مجلة اليسار.

الفصل الثانى:

يتكون من: مقال نشر فى مجلة أدب ونقد العدد ١٠٥ بتاريخ مايو ١٩٩٤ عنوانه (هذا الزمان ونجومه) ودراسة نشرت فى صفحة فكر ودراسات بجريدة الأهالى فى ٣١ أغسطس ١٩٩٤ بعنوان (الشورى ليست هى الديمقراطية)، أما (دراسة موازية- مصطلح دارج- الإسلام القبلى) فقد نشرت بمجلة أدب ونقد العدد ١١٣ يناير ١٩٩٥.

الفصل الثالث:

له قصة: الصحفى الشاب عصام عامر بـ (جريدة الأحرار) أجرى عشر مواجهات بين عشرة علمانيين (أوشكت أن أكتب «علمانويين» لأن علمانية الغالبية العظمى منهم مشوشة وغائمة وغير منضبطة. أ. هـ) وعشرة إسلامويين على مدار عشرة أعداد خلال العام ١٩٩٤م- حمل إلىّ عصام الملف الذى يحتوى على هذه المواجهات وطلب منى التعقيب عليها- فكتبت (مواجهة المواجهة: خليل عبد الكريم يفند دعاوى الإسلامويين) ولما كانت قد استهلكت تسع عشرة صفحة فلوسكاب فقد تعذر نشرها بالجريدة فجلس معى عصام واختصرناها وظهر الملخص فى (الأحرار) ١٢-١٠- ١٩٩٤م- وبعده مباشرة حادثنى عدد من الزملاء والأصدقاء والقراء معقبين فكنت أخبرهم أن هذا هو شطر محدود من المقالة الأصلية فألحوا علىّ جميعهم بلا استثناء على ضرورة نشر النص الكامل ونظراً لأن (مواجهة المواجهة) تعتبر فى رأيى إحدى الكتابات التى تأسست على قواعد عقائد «اليسار الإسلامى» وفى ذات الوقت ردت على كثير من أطروحات أخذت حجمها الحقيقى بعد أن (واجهناها)، لذلك سمحت لنفسى بأن تحملها دفتا هذا الكتاب.

وبعد

فهذه القواعد وماتلاها من أفكار وآراء تأسست عليها، نعرضها على الناس ونحن على يقين تام أنها عرضة للخطأ، لأننا لا ندعى العصمة، وهى تدور فى فلك الدين ولم تخرج عن مضماره، وهى اجتهادات يرد عليها الصح والغلط، ولم نصرح أبداً منذ أن بدأنا الكتابة أننا نملك الحقيقة المطلقة ولا

الكلمة الخاتمة.

ولقد قرأ أحد كتاب الرسائل على عمر بن الخطاب ما يلى: «هذا ما رآه الله تعالى وعمر بن الخطاب» فغضب الفاروق غضباً شديداً وقال له: بئس ما كتبت، امحه واكتب بدلاً منه « هذا ما رآه عمر فإن كان خطأ فوزره عليه وإن كان صواباً فهو من الله تعالى»، وهذا ما نقوله نحن ومن هنا فإننا نرجو ألا يأتى التعقيب علينا بالاتهام بتوهين العقيدة وتمريض الدين وتزييغ الملة، فهذا مسلك غير موضوعى ولا هو علمى وألا يكون فى صورة تهكم وسخرية وتعريض وغمز ولمز لأن هذه هى بضاعة الفارغين العاطلين كما يرى الجاحظ- ونطلب ممن يعتزم نقدنا أن يتعب كما تعبنا وأن يعرق ويبذل من الجهد الصادق قدر ما بذلناه حتى نصل إلى الحقيقة هذا إذا طابت السرائر، وحسنت النوايا.

والله تعالى وحده من وراء القصد.

الفصل الأول

إسلام .. لا كهانة

مقولات مرسلة: الاعوجاج والتقويم

بعد الذى حدث فى سقيفة بنى ساعدة وتمت البيعة لأبى بكر الصديق. رضى الله عنه . خطب أول خطبة جاء فيها :

"لقد وليت عليكم ولست بخيركم : فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى. إنما أنا مثلكم .. إلخ".

وتنسب إلى عمر بن الخطاب. رضى الله عنه. خطبة مماثلة وأن رجلاً رد عليه "والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا" فسر عمر وعقب: "الحمد لله الذى أوجد فى أمة محمد" عليه الصلاة والسلام، من يقول هذا للخليفة".

هذه المقولة التى تنسب للخليفتين الأول والثانى تتردد كثيراً على أقلام من يكتبون فى الفكر السياسى الإسلامى للتدليل على:

أ - ديمقراطية الحكم فى الإسلام.

ب - وجود المعارضة السياسية فيه.

وقد آن الأوان للتفرقة بين المقولات التى يرسلها الخليفة أو أمير المؤمنين أو الإمام، خاصة تلك التى يضمنها أول خطبة له يواجه بها المحكومين . ومازال حديث عهد بولايته: وبين الممارسات الفعلية التى يباشرها إبان حكمه .. هذا من ناحية.

أما من الناحية الأخرى فيتعين النظر إلى تلك المقولات المرسلة نظرة موضوعية خالية من العاطفة وزنتها بدقة تراعى فيها الظروف التى وردت فيها

وحال المخاطبين بها: وأنه من الطبيعى أن تجىء خطابية إنشائية لتتناسب مع مداركهم وأفهامهم إذ أنهم قد تعودوا على سماع ذلك الأسلوب سواء فى الخطب التى كانت تلقى فى الأسواق مثل : عكاظ، مجنة ، ذى المجاز أو فى القصائد الشعرية : ومن ثم فإن سحب تلك المقولات المرسلة لتغدو مواد دستور يصلح لمن أتى بعدهم بخمسة عشر قرناً، خطأ منهجى واضح لاتبرره النوايا الحسنة عند من ينادي به.

والتقييم الموضوعى لتلك المقولات المرسلة، يكشف عن هذا الخطأ المنهجى، فالاعوجاج، أو الإساءة. من قبل الحاكم يكون على ثلاثة ضروب:

الأول : اعوجاج ذاتى مثل شرب الخمر ولعب الميسر والمخادنة والإقبال على مجالس اللهو . وهذا من العسير إثباته إلا عن طريق التجسس المنهى عنه شرعاً: فضلاً عن أن تأثيره فى الحاكم لايتعدى إلى الجانب العام منه إلا إذا انصرف إليه تماماً وبالكلية.

الثانى: يختلط فيه الجانبان الشخصى والعام مثل قبول العمولات عن مبيعات الأسلحة أو الهدايا من علية القوم (أو الملأ بالتعبير القرآنى) وهذا من المتعذر إن لم يكن من المستحيل إثباته ولا سبيل فيه إلا الأخذ بالظنة والشبهات والشائعات . وهذا منهى عنه أيضاً.

الثالث: وهو المتعلق بالجانب العام بصورة لا لبس فيها مثل ممالأة العدو أو التصالح معه كما حدث فى معاهدة كامب ديفيد.

وهذه الضروب من الاعوجاج من المحتم أن تصبح موضع خلاف بين المحكومين (الأمة) ، فالبعض قد يرى أن الحاكم إذا كان حازماً ضابطاً للأمور فلا شأن لأحد بشربه الخمر أو حضوره مجالس اللهو أو مخادنته،

والبعض الآخر يرى أن الاعوجاج كما يكون فى التصرفات العامة يتحقق فى التصرفات الخاصة أو الشخصية ولا خير فى حاكم يخالف الشريعة فى حياته الخاصة بتعاطيه المنكر أو إقباله على اللهو وإذا كان هذا هو شأن الاختلاف حيال الضرب الأول من ضروب الاعوجاج فكيف يغدو نحو النوعين الآخرين وهما أخطر بما لا يقاس عليه ، فإذا وقع مثل هذا الاختلاف بين الأمة (المحكومين) فمن الذى يحسمه وتكون له الكلمة الفاصلة فى أن هذا اعوجاج أم لا ؟

إن المقولة تنص على أنه "... وإذا أسأت فقوموني".

ولم تبين كنه الإساءة أو الاعوجاج ولم توضح لنا من الذى يتولى التقويم ! ولا كيفيته : أى الطرق التى تتبع فى ردع الحاكم المعوج حتى يستقيم!

إن عمر بن الخطاب أجاز التقويم بالسيف إذ أنه مدح شجاعة الرجل الذى وقف وصاح فى وجهه: "والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بالسيف »، ومعنى ذلك أن تنشب حرب أهلية بين الفريق الذى يرى الاعوجاج والآخر الذى يرى الاستقامة.

إن الاختلاف حول تصرفات الحاكم تكرر على طول التاريخ القديم والوسيط والحديث لدى كافة الشعوب.

والمثل القريب الذى نساند به وجهة نظرنا هو ما حدث بعد عشر سنوات فحسب من إطلاق عمر بن الخطاب لمقولته، فقد انقسم المسلمون بشأن بعض ممارسات الخليفة الثالث عثمان بن عفان . رضى الله عنه. أدت بعد ذلك إلى مقتله ، وتحولوا إلى فريقين متعاديين - بعد أن كانوا يداً واحدة. وحارب بعضهم بعضاً حرباً ضروساً وكان على رأس المتصارعين أربعة من كبار

الصحابة القرشيين والذين يمتون للرسول - عليه الصلاة والسلام - بأوثق روابط القربى والمبشرين جميعهم بالجنة وهم:

على وعائشة وطلحة والزبير . رضى الله عنهم . وقامت (الفتنة الكبرى) التى صدعت الإسلام صدعاً مازال المسلمون يعانون من آثاره حتى الآن.

وإذا كان ذلك هو حال أعيان الصحابة فما بالك بغيرهم من عامة المسلمين!!!

وإذا كانت تلك المقولة لم تعصم من فرقة المسلمين وتناحرهم قبل مضى عقد واحد من السنين من إرسالها ، فكيف إذن تصلح لأن تصبح لبنة فى دستور المسلمين بعد مضى أربعة عشر قرناً من الزمان!

وكيف تنهض دليلاً أو حتى قرينة بسيطة على ديمقراطية الحكم فى الإسلام أو على وجود المعارضة السياسية فيه ؟ أليس هذا هو الخطأ المنهجي بأجلى صوره ؟!

مقولات مرسلة : من الذى أخطأ.. عمر أم المرأة؟!

من المقولات المرسلة التى يرددها الإخوة الذين يكتبون فى الفكر السياسى الإسلامى للتدليل على ديمقراطية الحكم فى الإسلام: أن امرأة عارضت عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو واقف على المنبر فى مسألة المغالاة فى المهور حتى اضطرته للاعتراف بخطئه.

ولنبين حقيقة الأمر.

الفرد فى شبه الجزيرة العربية كان - ولعله لايزال خاصة فى فوائض النفط - يعيش على الدخل "الريعى" الذى يأتى له إما من وراء جهد خاطف مثل غارات السلب "والنهب"، حتى قيل عنه إن رزقه تحت سنان رمحه وسيفه، أو من غير جهد مثل:

حلوان الكاهن وأجر الرقبية وضراب الفحل (= تأجير الفحل من الإبل لتعشير النوق) وثمن الدم والكلب وكسب الحجام وعرق الرقيق وأجر الإماء من الزنا وكانوا يطلقون عليه (مهر البغى) وأولادهن منه، والربا والمشاركة بالمال فى التجارة حتى قيل عن القافلة التى كان يقودها أبو سفيان (ألف جمل) والتى كانت السبب فى غزوة بدر الكبرى إنه لم يكن هناك بيت فى مكة ليس له فيها سهم وكان يفضل التجارة على الزراعة بل ويحتقر من يمتهنونها مثل بنى

حنيفة، وكان يطلق على من يحترفون الصناعة (القيون) أى العبيد ولم تعرف سوى قبيلة واحدة اشتغلت بها هى قبيلة بنى سليم، والعلة فى ذلك أن الزراعة والصناعة تحتاجان إلى بذل مجهود بعكس التجارة وحتى الأخيرة كان يقوم بالعبء الأوفر فيها الرقيق والموالى.

وعندما جاء الإسلام جفف منابع الدخول الريعية فحرم حلوان الكاهن وثمن الكلب والدم وكسب الحجام وضراب الفحل والربا، ونص القرآن الكريم على عدم إكراه الإماء على البغاء (ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) الآية / ٣٣ من سورة النور، وحارب المغالاة فى المهور (فى الزواج) وكان الرسول عليه وآله الصلاة والسلام يطبق ذلك بطريقة عملية:

(عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتى عشرة أوقية ونشاً) والنش نصف أوقية.

و(عن جعفر بن محمد عن أبيه: أن على بن أبى طالب أصدق فاطمة رضى الله عنها درعا من حديد وجرة وفى رواية بدل جرة: رحا).

الحديثان أوردهما البيهقى فى السنن الصغرى.

بل إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم زوج رجلا من امرأة وجعل مهرها تعليم الرجل إياها عشرين سورة من القرآن، وقال لآخر: التمس ولو خاتما من حديد.

***

لكن المغالاة فى المهور استمرت حتى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأدرك بثاقب نظره الآثار الاجتماعية الخطيرة التى تترتب عليها فعمل

جاهدا على الحد منها ، وأخذ يحث المسلمين على الإقلاع عنها:

(عن ابن سيرين عن أبى العجفاء السلمى قال سمعت عمر بن الخطاب يخطب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا لا تغالوا فى صداق النساء فإنها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى عند الله، كان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق امرأة من نسائه ولا أصدقت امرأة من بناته فوق اثنتى عشرة أوقية).

رواه الدارمى فى سننه.

ويبدو أن هذه الخطبة لم تعجب فريقا من المسلمين والمسلمات، ففى أثناء هذه الخطبة أو أخرى مماثلة لها، عارضت امرأة - لدافع شخصى أو عائلى - عمر وقالت له : كيف تقول ذلك والله تعالى يقول (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً) الآية / ٢٠ من سورة النساء وهنا قال عمر قولته المشهورة: أصابت امرأة وأخطأ عمر.

وفى رأينا أن عمر لم يخطىء وأن (القنطار) الذى ورد فى الآية التى تمثلت بها تلك المرأة ورد على سبيل المجاز لا الحقيقة مثل قوله تعالى:

(استغفر لهم أولا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) الآية / ٨٠ من سورة التوبة، فهل لو استغفر لهم الرسول عليه وآله الصلاة والسلام إحدى وسبعين مرة ، غفر الله لهم؟ كلا ، لأن السبعين مرة مجازية هنا لا حقيقية، كذلك القنطار فى تلك الآية، ولكن عمر أخذته رهبة الآية وسرعة الاعتراض وظروف الموقف فأقر على نفسه بالخطأ، وهو برىء منه ولاشك أن رأيه فى المغالاة فى المهور وما ينجم عنها من شرور اجتماعية هو السديد والصائب.

وعلى أية حال فإن السجال الذى تم بين عمرو المرأة كان بصدد مسألة اجتماعية بحتة لاتمت إلى السياسة بصلة، كتلك المحاورة التى دارت بين الرسول عليه وآله الصلاة والسلام وبين خولة بنت ثعلبة حول (الظهار) والتى ذكرتها سورة المجادلة (رقم ٥٨). ومن ثم فإن سحب تلك المقولة إلى المجال السياسى والخروج منها إلى تأكيد ديمقراطية الحاكم فى الإسلام تحميل لها بما تنوء به وتند عنه.

مقولات مرسلة : استعباد الناس

بين

الشعار والتقنين

القصة معروفة لدى كل - أوجل - القراء:

في ولاية عمرو بن العاص على مصر ، تسابق مصرى (قبطى) مع أحد أبنائه فسبقه المصرى - والمصريون سباقون منذ فجر التاريخ - فما كان من ابن الوالى إلا أن ضربه بالسوط فسافر المصرى إلى "المدينة" حاضرة الدولة الإسلامية آنذاك ورفع شكايته إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاستدعى عمرو بن العاص وابنه، ولما ثبت لديه صدق المصرى أمره أن يضرب ابن الوالى كما ضربه ، وفى رواية أنه طلب منه أن يضرب عمرو بن العاص على صلعته لأن ابنه لم يقدم على فعلته النكراء إلا بسلطان والده، ولكن القبطى (المصرى) رفض مكتفيا بضرب الابن، وهنا قال الخليفة العادل قولته الشهيرة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟".

بكافة المقاييس فإن عمل الفاروق ومقولته رائعان.

إنما كلما قرأت هذه الحكاية تساءلت:

لماذا لم يقم الخليفة الراشد الثانى بتقنين حدود الحاكم وتبيين مدى سلطته قبل المحكومين ، وحقوق هؤلاء عليه، وخاصة أنه قد لاحظ بعض التجاوزات من عدد من ولاته ومنها ما تعلق بالناحية المالية فشاطرهم (= أخذ

الشطر أى النصف) أموالهم ومنهم صحابة أكابر.

إن عمر - رضى الله عنه - لو فعل ذلك لتغير وجه التاريخ الإسلامى ، إذ أن التقنين الذى كان سيخلفه في هذه الخصوصية سوف يغدو دستورا لحكام المسلمين وولاتهم ومن المتعذر إن لم يكن من المستحيل عليهم الخروج عليه أو تجاوزه لأن المحكومين كانوا سيشهرونه فى وجوههم، ولكن قد يعترض أحد المتحذلقين فيقول:

إن الدرجة الحضارية السائدة فى ذلك الوقت لم تكن لتسمح بظهور هذا التشريع!

والرد عليه حاضر ومن سيرة عمر ذاته، فلقد ترك تقنينا أو دستوراً (فى القضاء) يقتنع كل من اطلع عليه وقرأ مواده أو نصوصه أنه ممتاز بل سابق لعصره، ونعنى به ما هو معروف فى كتب التراث الإسلامى بـ "رسالة عمر فى القضاء" التى أرسلها إلى الصحابى المعروف أبى موسى الأشعرى عندما كان يلى القضاء فى العراق.

لكن الذى لامرية فيه أن عمر كان متسقا مع نفسه ومجتمعه وبيئته عندما ترك شعاره دون تقنين، ذلك أن الإسلام قد ورث من قبائل شبه الجزيرة العربية قبل البعثة المحمدية واستعار منهم الكثير جداً من الأنظمة التى كانت سائدة لديهم ومنها أن سلطة الحاكم - وكان يمثلها فى تلك الأيام "شيخ القبيلة" - كانت مطلقة، حتى "مجلس القبيلة" الذى حل محله فى الإسلام "أهل الحل والعقد أو "أهل الاختيار" كان رأيه استشارياً وغير ملزم ألبتة (انظر كتابنا "الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية" وخاصة فصلى: الخلافة والشورى).
وانتقل ذلك بدوره إلى الإسلام ، ومن ثم كان من المحال على عمر رضى الله

عنه، أن يتصور محدودية سلطة الحاكم والوالي، ولذا أطلق شعارا ترك للوالي أو الحاكم تطبيقه كما يشاء ولم يترك تقنينا ملزما.

حتى الفقهاء الذين تناولوا الجانب السياسي ، وأشهرهم الماوردي (٣٦٤ / ٤٥٠ هـ) قعَّدوا (= وضعوا القواعد) للأمر الواقع أي كما هو كائن لا كما يجب أن يكون، ولهذا فلم تكن مصادفة أن يطلق على كتابه عنوان (الأحكام السلطانية) لا الأحكام الخليفية. إذ معروف أن الأمراء والسلاطين مثل البويهيين والسلاجقة في زمن المؤلف هم الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة الفعلية بأيديهم دون الخلفاء الذين تحولوا إلى مجرد رموز شكلية.

ثم تطور الأمر بعد ذلك على يد فقهاء الدولة العثمانية وبرروا سلطة آل عثمان حتى ولو تجاوزت كل الحدود على أساس (سلطان غشوم خير من فتنة تدوم) ، إنه الموروث ذاته حتى ولو تموضع في صورة صارخة، وأخيراً فإن العجب كله للذين ينتقدون "الإسلامويين" في أيامنا هذه ويطالبونهم ببرامج أو مناهج محدودة بدلا من الشعارات التي يطلقونها مثل "الإسلام هو الحل" و"تعال نصلح الدنيا بالدين". إذ لم يدرك هؤلاء الناقدون أن (الإسلامويين) المعاصرين يسيرون في ذلك على نهج سلفهم الصالح وأن مسلكهم هذا له تاريخيته وسنده.

لماذا الإصرار على
«تجريدية» النصوص المقدسة

جريدة الشرق الأوسط سعودية تصدر فى لندن باللغة العربية ولها طبعة قاهرية، وفى خطها تلتزم طاعة "أولى الأمر" امتثالا للآية القرآنية المعروفة ، وتنشر صفحة دينية تستكتب فيها عددا من مقيمى الشعائر والوعاظ وخطباء وأئمة المساجد. من جميع دول العالم الإسلامى، كما أن أصحاب عمائم بيضاء مشهورين من مصر لهم أعمدة وأركان ومقالات ثابتة فيها ،.ومع ذلك فقد أصدر فضيلة الشيخ عبد الله بن جبرين عضو الإفتاء بـ (الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد) بالسعودية، فتوى تحرم التعامل معها أو تشجيعها أو تمكينها أو اقتنائها أو شرائها أو توزيعها (.. وأشير على كل ناصح للإسلام أن يتجنب المساهمة فيها أو النشر فيها..) نحن إذن أمام إشكالية حادة..

أحد رجال الدين المعروفين فى السعودية يشغل منصبا مرموقا فى أكبر مؤسسة دينية رسمية هناك يحرم قراءة جريدة الشرق الأوسط والكتابة فيها والترويج لها وتوزيعها.. إلخ، وأسماء لامعة وكواكب ساطعة في أفق التيار الإسلامى حكوميون وغير حكوميين (ولا أريد أن أذكر أسماءً، إذ ليس قصدى إحراج أحد لأن الجريدة المذكورة تدفع لهم بسخاء وبالدولار سيد العملات الأجنبية) تستحل الكتابة فيها!!! وكل فريق من هؤلاء (خصوم الصحيفة ومحاسيبها أو خشداشيها) يستند فى تأييد موقفه إلى "نصوص مقدسة" فى

ذات الدرجة والقوة أى أنها جميعها قطعية الورود والدلالة!!.

ومنذ عامين عشت ذات الإشكالية إذ حضرت فى بغداد مؤتمرا إسلاميا لمناصرة العراق، وفى نفس الوقت انعقد فى مكة مؤتمر مماثل لتأييد الكويت وشهد كلاً منهما (علما أكابر) على حد تعبير إخوتنا الأفغان ، استخدموا آيات وأحاديث فى ذات المستوى والحجية!!!!

فماذا يعنى ذلك؟

ماذا يعنى أن رجال الدين الإسلامى يختلفون - حاليا - فى كل الأمور من أبسطها إلى أخطرها: من قراءة صحيفة يومية أو الكتابة فيها إلى الحرب؟

إن هناك دوافع كثيرة لذلك، ولكن فى اعتقادنا أن أهمها هو أن رجال الدين يصرون على قراءة "النصوص المقدسة" قراءة تجريدية - لا صلة لها بالمكان والزمان التى جاءت فيهما ولا علاقة لها بالمخاطبين آنذاك ولا مداركهم وبيئاتهم ودرجتهم فى سلم المعرفة والحضارة .. إلخ ولا رابطة تربطها بالوقائع التى واكبت النزول بالنسبة للآيات القرآنية الكريمة أو الورود بالنسبة للأحاديث النبوية الشريفة، ولايريدون أن يدركوا أن (الآيات) بعد أن نطق بها - النبى عليه وآله أفضل الصلاة والسلام - بلغته العربية السائدة وقت بعثته حملت كل موروثات (= جينيات) تلك اللغة ورموزها وإشاراتها ودلالاتها وإيحاءاتها ومعانيها واستعاراتها وكناياتها وتشبيهاتها .. إلخ ، وأن فصم ذلك كله من "النصوص المقدسة" أو فصلها عنه، والتعامل معها على أنها "مجردة" هو الذى يوقع فى ذلك الخلط المعيب.

ومن الغريب أن علماء السلف رضوان الله تعالى عليهم قد فطنوا إلى أهمية ربط الآية بحادثة نزولها والحديث النبوى بمناسبة وروده، فقد ألف الواحدى النيسابورى فى (أسباب النزول) ، والسيوطى فعل ذلك، أما مؤلفات مناسبات

ورود الحديث فهى كثيرة نذكر منها على سبيل المثال:

(البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف) للدمشقى. ورجال الدين الإسلامى المحدثون لا يجهلون هذه المؤلفات، إذ هى مشهورة ومتداولة وطبعت عدة مرات، ولكنهم يلتفتون عنها، ولا يعيرونها اهتماما، لأن المنهج الذى وضعته يصادم توجهاتهم، ذلك أنهم ينطلقون من ركائز أيديولوجية أو سياسية أو طبقية (= منفعية مصلحية) ومن ثم فهم يحرصون على بقاء (النصوص المقدسة) فى حالة تجريد ومطلقية بحيث تصلح لكل تفسير وتتسع لأى تأويل، وفى مقدمته التفسير أو التأويل الذى يتفق مع أيديولوجية المفسر أو مذهبه السياسى أو مكاسبه، ففضيلة الشيخ عبد الله بن جبرين عندما يحرم قراءة جريدة الشرق الأوسط أو الكتابة فيها أو الترويج لها أو توزيعها .. إلخ ويطوع النصوص المقدسة لتحمل فتواه وتدعمها، إنما يفعل ذلك لأن هذه الصحيفة (بوق) للأسرة السعودية المالكة وهو (= الشيخ عبد الله بن جبرين) رغم عضويته فى المؤسسة الدينية الرسمية هناك، أحد معارضيها المتقدمين إذ كان أول من أيد. (مذكرة النصيحة/ محرم ١٤١٣ هـ) التى رفعتها نخبة من المثقفين والعلماء والعلمانيين والجامعيين والمهنيين السعوديين إلى الملك فهد تطالب (= النخبة) فيها بإصلاحات دستورية وإدارية ومالية وقانونية، وترى ألا تنفرد العائلة السعودية بمقدرات المملكة وخيراتها.

أما رجال الدين الذين يكتبون فى الصحيفة المذكورة ويقبضون بالدولار فمبعث تأويلهم للنصوص المقدسة التى تناصر مقالاتهم وأعمدتهم هو الكسب المادى الذى يدخل جيوبهم الوسيعة مقابل ذلك.

إذن كل فريق منهما من مصلحته أن تظل النصوص المقدسة فى حالة تجريدية مطلقة ومنقطعة عن زمانها ومكانها حتى تتسع لكل تفسير وتقبل أى تأويل.

كم يبلغ ثمن كلمة الحق؟

الذى يصدع بكلمة الحق، خاصة فى وجه الحاكم ، عليه أن يدفع ثمناً غالياً: قد يكون رقبته أو حريته أو قوته ومن يعول وقد يموت غريباً طريداً لا يجد الثوب الذى يكفن فيه، لأنه صاحب رسالة لابد له أن يبلغها ولا يهمه ما يحدث نتيجة ذلك.

من هذا الصنف النادر من البشر: الصحابى الجليل جندب (وقيل يزيد) بن جنادة بن سفيان بن عبيد المشهور بـ (أبى ذر الغفارى).

سمعهم في مضارب قبيلة غفار يتحدثون عن رجل خرج فى مكة يزعم أنه نبى فأرسل أخاه "أنيسا" ليستطلع له حقيقة الأمر، فانطلق ثم عاد بخبر لم يشف غليله، إذ قال له : إنه يأمر بالخير وينهى عن الشر، فسافر أبو ذر بنفسه وبعد معاناة قابل الرسول عليه الصلاة والسلام وطلب منه أن يعرض عليه ما يدعو إليه ففعل، فأسلم فى الحال فكان الرابع فى ترتيب السابقين الأولين ولذلك كثيراً ما كان يردد باعتزاز شديد (لقد رأيتنى ربع الإسلام)، وأبى عليه مزاجه النفسى إلا أن يجهر بإسلامه، - لأن مبدأه أن من اقتنع بحقيقة فعليه أن يصرح بها ولايكتمها فى نفسه، وهو مبدأ سيظل ملازما له حتى وفاته وسيعرضه لمحن وخطوب كثيرة - فخرج إلى فناء الكعبة وعلى رءوس صناديد مكة أعلن دخوله فى دين محمد فهموا بالفتك به لولا أن العباس بن عبد

المطلب أنقذه بأن ذكرهم أن قوافلهم تمر بمضارب غفار قبيلة الرجل ، ولو ناله أذى منهم فإن تجارتهم سوف تمنى بخسائر فادحة فكفوا أيديهم عنه.

وعاد إلى قبيلته ثم هاجر فيما بعد إلى المدينة، ولازم الرسول عليه السلام الذى قدر فيه شجاعته فى إبداء رأيه وصلابته فى الحق فقال عنه:

"ما تقل الغبراء ولا تظل الخضراء، من ذى لهجة أصدق ولا أوفى من أبى ذر شبيه عيسى بن مريم". ومات عليه الصلاة والسلام وهو راضٍ عنه أتم ما يكون الرضى.

وبعد الفتوحات وماجلبته من أموال أسطورية أحدثت تغييرات جذرية فى بنية المجتمع تبدلت الأحوال عما كانت عليه فى عهد الرسول وشيئاً فشيئاً أخذ الفرع الأموى من قريش يدير الأمور كما يدير الصولجان الكرة حسب تعبير زعيمهم أبى سفيان وحتى أمسك بيديه زمام السلطة فاستمر معاوية والياً على الشام وأصبح عثمان خليفة، وكلاهما أموى، وكان أبو ذر سمع حديثا من نبى الله المعصوم :إذا بلغ البنيان سلعا (= جبلا بالمدينة) فاخرج منها" فرحل إلى الشام، وفى معتقدى أنه تناهت إلى سمعه أشياء عن معاوية فلم يطق الصبر والبقاء فى المدينة، فلما تحقق من الأمر بأن معاوية كان يعتبر المال: مال الله لا مال المسلمين لتكون له الحرية المطلقة فى التصرف فيه، تصدى له وعارض سياسته المالية وأفهمه أن المال مال المسلمين.. إلخ ولكن معاوية لم يطق معارضة أبى ذر وخاصة أن العامة أخذت تلتف حوله فكتب إلى الخليفة عثمان الذى رد عليه طالبا منه إعادته إليه، وفى المدينة لم يكف أبو ذر عن نصح عثمان ولفت نظره وتذكيره بسيرة النبى وصاحبيه . لم يتحمل عثمان لسان أبى ذر فنفاه إلى الربذة - وقيل أكثر من ذلك - والربذة فلاة من الأرض (مقطوعة)

فى طريق المسافر إلى العراق - وفيها عاش غريبا طريدا هو وزوجته وعندما حضرته الوفاة، جزعت زوجته لأنه لم يكن لديهما سوى ثوب واحد (بعض الصحابة عند وفاته كسر ما خلفه من ذهب وفضة بالفؤوس ليقسم بين ورثته") - لكن أبا ذر صبرها وأكد لها أنه سيشهد موته ودفنه (عصابة من المؤمنين) كما أخبره حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام وفعلا مرت جماعة فنادتهم الزوجة وأطلعتهم على حالهما فاسترجعوا (= إنا لله وإنا إليه راجعون)، وحتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة لم يقبل أن يهادن أو يداهن السلطة إذ طلب من أولئك النفر ألا يُكفِّنه:

أمير أو عريف أو نقيب أو صاحب بريد، وكان من بينهم فتى من الأنصار فقال: يا عم أنا لم أباشر أى عمل من هذه العمالات، فرد أبو ذر:

إذن أنت الذى يتولى تكفيني - وأغمض عينيه ومات راضيا مرضيا.

وهكذا فإن من يريد أن يجهر بكلمة الحق خاصة فى وجه السلطة فعليه أن يدفع الثمن، مثلما فعل أبو ذر رضى الله عنه وجزاه عن المستضعفين والمحرومين الذين دافع عنهم خير الجزاء.

إعلام الورى.. بالعلة الصحيحة لما جرى

عندما تقرأ فى كتب التراث في سيرة أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها ، تصيبك الدهشة مما قالته مثلا تعقيباً على آية من القرآن، أو تأكيدها أن أكثر من آية كانت تتلى على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، بصورة مختلفة أو بزيادة بعض الكلمات فيها ، أو إجابتها عندما تسأل: هذا عمل الكتاب أخطأوا فى الكتّاب (= الكتابة). أو تعليقها على ما كان يحدث أمامها سواء فى حجرتها أو حجرات باقى زوجات الرسول عليه السلام.

وإذا طالعت مؤلفات"علوم القرآن" تصادفك أمور تحيرك وقد أورد منها - على سبيل المثال الذى يحتمله الحيز المتاح - أبو بكر عبد الله أبو داوود سليمان بن الأشعث السجستانى العديد منها فى كتابة "المصاحف" مثل:

اختلاف مصاحف أعلام الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ك" علىّ بن أبى طالب، وأبى بن كعب وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس.. " إلخ، لا فى ترتيب السور ولكن فى ألفاظ عدد من الآيات سواء بالنقص أو بالزيادة . دعك من اختلاف القراءات أو الأحرف .

ولو أننى ذكرت شطرا مما جاء على لسان الصديّقة - طيب الله ثراها ناقلا إياه من أمهات موسوعات السنة "الصحاح". أو من أشهر دواوين السيرة المشرفة (التى تلقتها الأمة بالقبول والتجلة). أو أوردت بعضا مما انضوى

عليه كتاب "المصاحف" للسجستاتى الذى من رواته (القاضى الإمام فخر القضاء أبو الفضل الأرموى) و(الشيخ الأمام العدل أبو الفضل بن عبد السلام بن سلطان) وهما من هما فى التبحر فى العلم والاشتهار بالتقوى، لو أننى فعلت ذلك لصودر هذا العدد من مجلة اليسار ولقدمت مع رئيس التحرير للمحاكمة بتهم عديدة أخفها الكفر والإلحاد والمروق من الملة والعياذ بالله تعالى.

فإذا وصلت إلى المحدثين الذين سطروا سيرة أم المؤمنين عائشة حتى الذين بدأوا حياتهم الفكرية بقدر معقول من الليبرالية مثل الأستاذ العقاد لألفيت سردا مختلفا.

أما المعاصرون الذين يؤلفون فى "علوم القرآن" فهم لا يحجمون عن الاستشهاد بما تضمنه "المصاحف" للسجستانى فحسب بل يهاجمونه ويطعنون عليه حتى فى عقيدته بأسلوب يتسم بالمغالطة والمكابرة واللعب بالألفاظ وليّ أعناق الكلمات، ولو كان السجستانى كذلك لما أقدم على رواية كتابه (الإمام فخر القضاة) و(الأمام العدل)!!!

كثيراً ما ساءلت نفسى لماذا تمتاز كتب التراث المتقدمة بهذا الامتياز الباهر بالأمانة العلمية على المؤلفات المتأخرة والمعاصرة ؟ وما الذى جعلنا نتقدم إلى الخلف؟

والجواب في الحضارة والثقافة لدى المسلمين فى القرون الثلاثة الأولى من جراء اختلاطهم بغيرهم من الشعوب واطلاعهم على إبداعاتهم عن طريق الترجمة التى بدأت مبكرة - فى عهد الأمويين - وكان المسلمون آنذاك فى

قمة مجدهم وانتصاراتهم وتوسعاتهم - لم يكن أمامهم من سبيل إلا الكتابة بحرية وعقلانية ، ولكن للأسف فإن هذه الموجة الزاهرة انحسرت ، وكانت لذلك أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية - لا محل لذكرها هنا - ثم تكرس الارتداد على يد الأشعرى (توفى فى الربع الأول من القرن الرابع الهجرى) ثم على يد الغزالى (القرن الخامس الهجرى) ، فهيمن على (الفضاء الدينى) مانسميه بالدوجماطيقية أو الانغلاقية التى وجدت فى الطغم الحاكمة آنذاك سندا ونصيرا ، وتحددت (المواضيع الدينية) تحديدا صارما ، بل وخُطت لها لغة خاصة بها غدا من المحظور الخروج عنها . من ذلك التاريخ أصبح (الفضاء الدينى بكافة فروعه) محصورا داخل ذلك السياج الصارم ، ومن وقتها لم يستطع أحد أن يقتحمه حتى أصحاب حركة التنوير الحديثة : الطهطاوى الأفغانى، عبده لم يجرأوا على ذلك وإن حاولوا الالتفاف حوله وهو ما يطلق عليه بعض الباحثين خطأ - (التلفيقية) ، وعلى الرغم من أن الجيل الذى خلفهم : طه حسين ، العقاد ، هيكل ، بدأ مستنيراً وعقلانياً فقد دخل طائعاً مختاراً حظيرة الدوجماطيقية - وإن اختلفت درجاتهم فى ذلك.

خلاصة القول أن هذه (الانغلاقية) الدينية ظلت منذ قرون ومازالت هى المسيطرة والمهيمنة والحاكمة على (الفضاء الدينى) وإذ أنها تعد من أهم أسباب ما تتردى فيه الشعوب العربية والإسلامية من تخلف وجمود وقهر . لأنها والتفكير الحر والعقلانية على طرفى نقيض . فقد حاول - فى مصر - فى العقد الأخير بالتحديد - نفر من الباحثين - ولعلها لم تكن مصادفة أن تصدر مؤلفاتهم من دار نشر واحدة - اختراق سور (الدوجماطيقية) التى

سجنت فى داخله العقل الإسلامى - وكان د . نصر حامد أبو زيد واحداً من ألمعهم . فقد كتب عن الإمام الشافعى ولكن لم يفعل كغيره - من المتأخرين والمحدثين - الذين يؤلفون عن العباقرة والأعلام وأئمة المذاهب فيجنحون إلى الأسلوب التمجيدى التعظيمى ولايذكرون سوى المناقب والفضائل والمزايا والشمائل والنماذج ومفاتيح الشخصيات... إلخ وهو النهج الذى لاترضى (الانغلاقية) عن سواه ولا ترى له بديلا ، وإنما حلل فقه الشافعى أو فكره ومن السطور الأولى فى كتابه (الإمام الشافعى وتأسيس الإيديولوجية الوسطية) قال عنه: "يبدو كأنه يؤسس بالعقل إلغاء العقل" وهذا فى نظر دهاقنه (الدوجماطيقية) كبيرة الكبائر. ولم يقف عند ذلك بل توغل داخل السياج وأقدم على (نقد الخطاب الدينى) بما فيه اليسار الإسلامى - وكاتب هذه السطور يختلف معه فى هذه النقطة- وأصحاب (الخطاب الدينى) هم الخلف النجيب لواضعى الخطوط العريضة لتلك (الانغلافية) فثارت ثائرتهم ولم يغفروا له ذلك، فلما حانت لهم الفرصة التى تمثلت فى طلب ترقيته إلى أستاذ انتهزوها وحرموه من حقه.

هذه هى علة العلل فيما حدث. ولذا فإن الذين يختزلون القضية فى كونها معركة شخصية بين مهاجم لشركات توظيف الأموال ومدافع عنها يسطحونها وينزلون بمستواه من مفكر صاحب منهج متكامل حر إلى أحد الذين ناصبوا تلك الشركات العداوة ، فضلا عن الهبوط بمستواها من قضية قومية - حرية البحث العلمى فى الجامعات العربية عامة والمصرية خاصة - إلى قضية ذاتية تحركها دوافع شخصية ولو كان هذا التحليل صحيحا وهو بالقطع ليس كذلك!

فلماذا وافق على التقرير السالب أساتذة لايختلف اثنان على أنهم كبار ، منهم الدكاترة شوقى ضيف، أحمد هيكل، نبيلة هانم إبراهيم، محمود حجازى، ولا صلة لهؤلاء بشركات توظيف الأموال؟ ولكن قد يكون أستاذ الجامعة عالما مرموقا فى تخصصه إنما لملابسات عديدة - قد يفطن لها القارىء اللبيب - لا طاقة له باقتحام سور (الدوجماطيقية) ولا حتى بالاصطدام بـ (سدنتها) وما أدراك ما هؤلاء والجهات المتنفذة التى تقف وراءهم والتى تملك سيف المعز وذهبه!!

ولكن الدكتور نصر فعل ذلك بجسارة فاستحق الحرمان فى نظرهم من درجة علمية هو جدير بها بكل المقاييس.

التابعون

هم أفراد الجيل التالى للصحابة - رضوان الله تعالى عليهم - فالتابعى هو من لقى الصحابة موقنا برسالة النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم - ومات على الإسلام واللفظ مشتق من الفعل "تبع".

وتبعه: مشى خلفه وسار فى إثره ، وتلاه وحذا حذوه ووافقه على رأيه.

وفى القاموس المحيط:

تبع المرأة : عاشقها وتابعها ، والتُبع: الظل ، وشاة ويقرة وجارية متُبع: يتبعها ولدها أينما ذهبت، والتباع : الولاء ، وفى المعجم الوسيط:

التابع هو التالى والخادم، وفى اصطلاح النحاة هو اللفظ الذى يتبع ما قبله فى إعرابه.

ويرى الراغب الأصفهانى فى "المفردات" أن الاتباع يتحقق تارة بالارتسام وأخرى بالائتمار.

نخلص من ذلك إلى أن كلمة "التابعى" تعنى من يتصف بالانقياد والتسليم والموافقة على رأى المتبوع والمشى وراءه كالظل، والفصيل للشاة والبقرة. والطفل للجارية (= المرأة). ويتسم بالولاء والخادمية ويستحيل أن يجىء

"السابق" بل هو على الدوام "التالى" و"اللاحق" حتى فى الإعراب يتبع ما قبله، أى ليست له كينونة خاصة أو استقلال ذاتى . هذا النعت بهذه الإيحاءات النفاذة بل الدلالات الواضحة أثر بشدة على "الفكر الدينى" فى الإسلام، فبهذه الصورة المجسمة ليس مسموحا لـ "التابع"ى أن يكون صاحب رأى مستقل أو فكر خاص!!

وكلما توغل فى الاتباع صار محمودا وأمينا وموضع ثقة وقوبل كلامه بالتجلة وعظيم الاحترام.

أما إذا حاول - مجرد محاولة - مجاوزة هذا النطاق فهو "مبتدع" ولو لم يخرج عن حدود الدين وموجباته:

(فإن ابتُداع شىء لا يخالف الشريعة.. فقد كان جمهور السلف يكرهونه . وكانوا ينفرون من كل مبتدع وإن كان جائزاً.. حفظاً للأصل وهو الاتباع).

هذا ما نقله إلينا ابن الجوزى فى "تلبيس إبليس". ولقد أدرك أبو حنيفة خطورة الوصف "التابعى" وتداعياته فأطلق صيحته المشهورة (أما إذا جئنا للحسن البصرى وإبراهيم النخعى وأضرابهما من التابعين فنحن رجال وهم رجال). ولكنها ذهبت أدراج الرياح فمن أتوا بعده صموا آذانهم عن ندائه الجرىء الباهر، ويشرح لنا الشوكانى فى "القول المفيد" الموقف بجلاء بعد رحيل الإمام الأعظم (= أبى حنيفة) فيقول (أما الإمام أحمد بن حنبل فهو أشد الأئمة تنفيرا عن الرأى وأبعدهم عنه.. وقد نقل عنه ابن القيم فى مؤلفاته ك "أعلام الموقعين" ما فيه التصريح بأنه: لا عمل على الرأى أصلاً).

وأكمل تلامذة أحمد بن حنبل مسيرة الاتباع تارة بالائتمار وأخرى بالارتسام - كما أوضح لنا الراغب فى المفردات - والانقياد والولاء - والخادمية .. إلخ وجعلوه أصل الأصول!!!

حتى تجمد "الفكر الدينى" بل تحنط وغدا من محفوظات المتاحف ولو أن أفراد الجيل الثانى أطلق عليهم بدلاً من "التابعين": المبتكرين أو المجددين أو المبدعين.. لغدا ذلك أحد العوامل الفاعلة فى تثوير "الفكر الدينى" ونقله من الإستاتيكية إلى الديناميكية.

المذهب الفقهى والمجتمع

نشأ المذهب الحنفى بالعراق.

المنطقة التى كانت تعرف قديما بـ " ما بين النهرين" التى شهدت حضارات مختلفة وثقافات "كتابية" متنوعة، وفيها نشأت العقائد التى – على ما يؤكد المؤرخون – أول من ذكر : قصص الخلق ، وانفصال السماء عن الأرض بعد أن كانتا كتلة واحدة ، وآدم وحواء والشيطان والشجرة والحية، والنار والجنة، وهابيل وقابيل وتقديم كل منهما لقربان خاص ، والطوفان والسفينة التى ركب فيها زوجان ذكر وأنثى من كل نوع من المخلوقات .. إلخ.

وسمع أحبار اليهود – أيام السبى البابلى – تلك "الحكايا" فضمنوها "كتابهم المقدس" ومنه تسربت "مسطورة" وراء أخرى إلى "باقى الأديان"!.

لذلك فإن المواطن فى ذلك الإقليم كان متفتح الذهن واسع الأفق لأنه وريث حضارة وثقافة عريقتين، ومن ثم فهو لايذعن للرأى الذى يخاطبه ولا يسلم للفكرة التى تلقى عليه، بل يعمل عقله ويدرس ويمحص ويناقش ويحاور ويقيس الأمور على أشباهها والمسائل على نظائرها والفروع على الأصول .. إلخ ولايدع شيئاً من ذلك حتى يطمئن عقله ويرضى، ومن ثم لم تكن مصادفة أن يطلق على مدرسة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان شيخ المذهب "مدرسة أهل

الرأى"

* * *

على العكس تربى الإمام مالك فى "المدينة" التى تقع فى واحة "يثرب" التى كانت - من قبل الإسلام - منغلقة على نفسها ، حتى طريق القوافل كان بعيدا عنها ، ولم تشهد حضارة.

كان مجتمعها بدويا قبليا ثقافته "شفوية" تعتمد على الذاكرة الحافظة التى "تسجل" ما يلقى عليها ثم تردده حرفيا دون تفكر أو تدبر ، ومن هنا اشتهر مالك وتلاميذه بـ "أهل الحديث" لالتزامهم الصارم بـ "النصوص" ونفورهم من المسائل الفرضية وكثرة المسائل.

جاء "أسد بن الفرات" إلى مالك يسأله ويتابع الأسئلة فيرد عليه ساخرا متهكماً:

(سلسلة بنت سليسلة: إذا كان كذا وكذا كان كذا وكذا ، إن أردت هذا .. فعليك بالعراق)!!.

وبالمناسبة أسد بن الفرات هو فاتح صقيلة ، وكان فقيها أخذ العلم على يد : مالك وأبى يوسف ومحمد بن الحسن "صاحبى أبى حنيفة" وغيرهم.

وأسد بن الفرات هو الذى يحمل اسمه المسجد الذى يقع فى شارع التحرير بالدقى الذى يخطب فيه حاليا "المهيج الدينى"الدكتور فى "الفلاحة" - عمر عبد الكافى* الذى كان يحض مريديه من السذج والبسطاء على مقاطعة

---

* أوقف د.عمر عن الخطابة بعد ذلك.

إخواننا الأقباط وعدم السلام عليهم أو تهنئتهم بالعيد، ثم فوجىء الناس برؤيته فى التلفاز والصحف والمجلات يلقى السلام على قداسة البابا شنودة ويهنئه بـ "عيد القيامة" فى قلب الكاتدرائية المرقسية (كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) الآية ٣ من سورة الصف، ويؤكد العليمون ببواطن الأمور وخفايا الشئون أن "المهيج الدينى" (= د. عبد الكافى) فعل ذلك خوفا على مشاريعه الواسعة العريضة فى الداخل والخارج وصدق الرسول الأعظم عليه وآله أفضل الصلاة والسلام: (أولئك أول من تسعر بهم النار).

* * *

ولأن المذاهب الفقهية كان من المحتم أن تجىء إفرازا طبيعيا للبيئة التى ظهرت فيها والمجتمع الذى ترعرعت داخله، وأنها بطريق اللزوم انعكاس للأحوال الاقتصادية والثقافية السائدة والمواريث التاريخية فقد تباينت طبيعة المذهبين الحنفى والمالكى.

ولقد حاول مالك ونفر من تلامذته تجاهل هذه القاعدة الصارمة التى تعتبر من أرسخ تواميس الاجتماع البشرى فأرادوا أن يمدوا نشاط مذهبهم إلى العراق "معقل أهل الرأى"، وبذلوا فى ذلك جهودا مريرة، واستعانوا بنفوذ "أبى أيوب سليمان بن بلال قاضى بغداد فى خلافة الرشيد العباسى" وأصحاب المقام الرفيع هناك "آل حماد بن زيد". وظلت هذه المساعى تتواصل مدة طويلة ولكن لأنها ضد قانون اجتماعى صارم ،فقد كان من المحتم ألا يكتب لها النجاح، وظلت المدرسة تذبل حتى انقطع المذهب المالكى بالكلية وكان آخر من رأتهم بغداد من فقهائه هو "محمد بن عبد الله أبو الفضل بن عبدوس" على

الرغم من أنها (= المدرسة المالكية بالعراق) تبنت شطرا ملحوظا من منهج أهل الرأى وأهل النظر من الأصوليين لكن بذرة التمسك بـ "النصوص" ظلت متمكنة منها.

* * *

وبعد...

فإن هذا الدرس المستفاد من التاريخ المقارن للمذاهب الفقهية نأمل أن يتمعن فيه "الإسلامويون" الذين يريدون أن يفرضوا علينا ولو بـ "قوة السلاح" أحكاما وقواعد مضى عليها نيف وعشرة قرون وظهرت فى بيئة مغايرة حتى من الناحية المناخية - لبيئتنا، ولمجتمع يختلف عن مجتمعنا من كافة الوجوه، ليس الآن فحسب بل حتى فى ذلك الزمان الذى وردت فيه تلك الأحكام والقواعد.

فكر المنتصرين.. وفكر المنهزمين

(الرد على الشافعى فيما خالف الكتاب والسنة).. هذه العبارة ليست من إنشائى، ولا أجرؤ على كتابتها حتى لا أتعرض لما لا قبل لى به، ولكنها عنوان كتاب لـ: محمد بن عبد الله بن الحكم (ت ٢٦٨ هـ)، فقيه مصرى على مذهب مالك فى عصره، وأفقه أهل دهره، وكانت إليه الرحلة من المغرب والأندلس، وأحد المحمدين الأربعة الذين اجتمعوا فى عصر واحد على ذات المذهب ولم يجتمع فى زمان سابق عليهم أو لاحق لهم مثلهم، اثنان مصريان هما: صاحبنا وابن المواز واثنان قرويان هما:

ابن سحنون وابن عبدوس

وهو سليل بيت علم فأبوه عبد الله بن الحكم بن أعين صاحب المختصرات المشهورة التى جمع فيها سماعاته عن الإمام مالك بن أنس وتلاميذه المباشرين، والتى لا يكتمل علم فقيه فى المذهب دون استيعابها، ومخالفة أى مسلم للكتاب والسنة أمر خطير فما بالك إذا نسب إلى إمام مثل الشافعى تبعه ويتبعه الملايين.

* * *

المهم أن أحداً من معاصرى محمد بن الحكم لم يسارع إلى تكفيره بمقولة إنه تعرض لأحد الأئمة الأعلام واستهزأ به، وهو أحد رموز الإسلام ولم يسارع

فرد آخر أو جماعة إلى المحكمة الشرعية طالبين التفريق بينه وبين زوجته والأمر بكفهما عن معاشرة لا تحل لهما .. إلخ ،حدث ذلك فى القرن الثالث الهجرى والأمة العربية الإسلامية فى عز شموخها وحضارتها وفى أوج ازدهارها وتفتحت على ماحولها من ثقافات وأخذت منها ما رأته موائما لها وتمثلته ثم طفقت بدورها تساهم فى العلوم القائمة وتبدع أخرى جديدة، ومن ثم فلم يكن هناك مجال لفرض قيود على حرية الفكر والرأى والتأليف ولا اللجوء إلى سلاح التكفير.

* * *

ثم تغيرت الأحوال وانقلبت إلى النقيض وأصبحت الأمة العربية الإسلامية مقهورة سياسيا وتابعة، وقرارها بيد غيرها و٩٩٪ من أوراق اللعب على مصيرها وأرضها يمسك بها (الفرنجة)، ويحكمها الطواغيت على اختلاف أسماء الأنظمة.

وفى مصر وهى أكبر دولة عربية إسلامية .. تتكون تركيبة المجتمع من أغلبية مسحوقة مهمشة مغلوبة على أمرها تفتقر إلى أبسط حقوقها الطبيعية وأولها السكن: يؤكد د/ محمد الجوهرى فى مقدمة كتابه بالاشتراك مع د/ سعاد عثمان (دراسات فى الانثروبولوجيا الحضرية) أن سكان المقابر فى بعض التقديرات الرسمية عشر سكان مدينة القاهرة (١٠٪).

ثم بيروقراطية فاسدة حتى النخاع مرتشية بل نهابة، ورأسمالية تتوزع إما بين أنشطة محرمة (تجارة المخدرات - تهريب الآثار - شبكات الرقيق الأبيض من الجنسين!) أو طفيلية أو خادمة ذليلة للمركز الغربى (الأوروبى /

الأمريكي).

وهذه الفئات جميعها من البديهي أن تلجأ إلى الوعي الديني المزيف المصنوع:

الأولى (الطبقة المسحوقة) تجد فيه عزاء عن واقع بائس وانتظارا لفارس - لن يجيىء - يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت عسفا وجورا.

والطبقة الأخرى بتنوعاتها المختلفة لتغطي ممارساتها الجانحة بنوع من المشروعية.

وكان من البديهي أن يفرز هذا المجتمع المتهرىء "متعلمين" ولا أقول "مثقفين" يشكلون "نخبته" تحمل الوعي الديني الذي يتمترس خلف الماورائي واللاهوتي والطقوسي والشعائري والذي يتعبد ليلا ونهارا في محراب "النصوص اللاتاريخية"، ولاعجب في ذلك لأن الفكر هو إنتاج للشروط الاجتماعية التي ينبثق منها، ومثل هذا الفكر - إن صحت تسميته كذلك - يتحتم أن يعادي العقلانية والحداثة والاستنارة والنظرة النقدية الفاحصة، مهما كان "حامله" أو "عارضه". ولايشترط أن يلبس الزي التقليدي إياه ولا أن يضع على رأسه شارته المميزة التي نعرفها جميعا. ولهذا كان من طبائع الأمور أن يكون على رأس "الحملة الظلامية" الأخيرة»*:

عمداء كليات آداب. أساتذة جامعيون من شتى التخصصات، أكاديميون، أطباء بشريون، صحفيون لهم نجومية، محامون ... إلخ.

* * *

---

* المقصود بها الهجمة الشرسة على د. نصر حامد أبو زيد

لذا فمع تقديرى الكامل لـ "الهيئة المصرية العامة للكتاب" ولجهدها البالغ والمشكور فى إصدار كتب المواجهة والتنوير فإن المعركة ليست ثقافية وإعلامية فحسب ولكنها بالدرجة الأولى معركة سياسية، اقتصادية، اجتماعية ومن هذا المنطلق تجيىء الإجابة على السؤال الذى يتردد بين أوساط "المثقفين الحقيقيين": لماذا أخفقت (فشلت) المشروعات الفكرية والثقافية التى قدمها أساتذة كبار سواء فى مصر أو المغرب أو سوريا ؟؟؟

أحمد "بن بللا" ورأيه الجرىء

يقول البعض عنه إنه كان اشتراكيا متحمسا ولولا إنقلاب هوارى بومدين عليه لأقام دولة الجزائر على أسس من الاشتراكية العلمية مثلما حاول الرفاق الأعزاء فى جنوب اليمن ، ولكنه فى فترة الاعتقال أو تحديد الإقامة تحول إلى إسلاموى قرارى بتأثير قراءته الكتب الدينية والتراثية.

والبعض الآخر يرى أن النزعة الإسلاموية كانت متأصلة فيه منذ البداية ويستدلون على ذلك بأنه فى احتفال حاشد بعيد أول مايو في موسكو العام ١٩٦٤ ضم قادة الشيوعية من كل الأجناس والألوان أعلن أن : القرآن هو دليلنا إلى الاشتراكية.

المهم أنه الآن يؤكد إسلامويته بشتى الطرق ويتبرأ من ماضيه الاشتراكى فيصرح بمناسبة وبدون مناسبة أن ثورة أكتوبر لم تستمر أكثر من أسبوع وأن تجربة ف. أ لينين انحرفت وأن الحزب (= الشيوعى السوفيتى) قضى على جاذبية الثورة .. إلخ.

ولكنه والحق لابد أن يقال زغم هذه المقولات الفوالت يقدم طروحات مستنيرة يصعب قياسها بما يُبديه مدعوو الاستنارة فى مصر ، الذين انكشفت حقيقتهم المروعة فى الأسابيع القليلة الماضية، إنما رغم حماسة بن بللا للإسلام فإنه يقرر بكل جرأة وشجاعة أن (أربعة عشر قرنا لم تشهد تطبيق الإسلام تطبيقا صحيحا إلا فى سنوات قليلة هي حوالى أربعين سنة هى عمر

الخلافة) – بالحرف الواحد من دراسة للباحث اللبنانى أ. صبحى عبد الوهاب بعنوان: أحمد بن بللا مواقف واتجاهات فى الفكر والسياسة والاجتماع – ص ١١ من العدد ٢٨ من مجلة "منبر الحوار" السنة الثامنة ربيع ١٩٩٣ م / بيروت.

* * *

هذه الحقيقة التى أكدها أحمد بن بللا – وهو حاليا يحوز رضى الأخوة الإسلامويين بنسبة ١٠٠٪، تدفع ما يكرره الوعاظ وخطباء المساجد ومقيمو الشعائر عندنا الذين أصبحوا فى غفلة من الزمان رموزا للإسلام ومتحدثين باسمه ، إذ يدعون أن أحكام الإسلام كانت مطبقة منذ الفتح العربى على يد عمرو بن العاص حتى دخول الاستعمار فشطبها وأحل القوانين الوضعية محلها.

نحن لا نزعم أن قولة الرئيس الأسبق أحمد بن بللا هى فصل الخطاب والحجة البالغة وأن ادعاء خطباء المساجد والوعاظ ومقيمى الشعائر خطأ محض ولكننا بموضوعية خالصة وبعيدا عن العبارات الإنشائية والجمل الخطابية نحتكم إلى أمور منها:

الأول : مختصرات وموسوعات التاريخ العربى الإسلامى وهى بحمد الله مطبوعة ومتناولة فنطلب من أولئك الإخوة أن يدلونا على صفحة أو صفحات منها تخبرنا عن فترة التزم فيها حكام المسلمين منذ معاوية بن أبى سفيان حتى إلغاء الخلافة – التزموا بأحكام الإسلام سواء فيما يتعلق بـ الناحية السياسية: أى علاقاتهم بمن كانوا يسمونهم الرعية (وهى كلمة ذات إيحاء

شديد ففى القاموس المحيط والمعجم الوسيط الرعية هى الماشية) أو من الناحية المالية ونعنى بها النظرة إلى بيت المال وهل هو حقيقة كان بيت مال المسلمين أو بيت مال الخليفة وعشيرته وخشداشينه أو من الناحية الشخصية أى من منهم عاش حياته التى رسم حدودها الإسلام والتى جسدها الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام أو عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وسؤال آخر مكمل للأول:

الخاصة والعامة أو الطبقة المترفة المنعمة المحظوظة والطبقة المسحوقة المطحونة المحرومة: هل كانت واحدة منها تسير وفق الأوامر والنواهى الإسلامية فى : دمشق والكوفة والبصرة والفسطاط والقاهرة والقيراون وقرطبة بل حتى فى مكة والمدينة؟

بداهة نحن لانعنى العبادة وطقوسها وشعائرها ولا مسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وخلع وإبراء وعتاق.. إلخ وهى غدت قطعة من نسيج التقاليد والعادات الاجتماعية ولا نعتقد أن إخواننا الوعاظ والخطباء، والأئمة ومقيمى الشعائر يقصدونها.

هل الزائر لأية عاصمة أو حاضرة أو مدينة من تلك المدن سواء فى ليل أو نهار كان يشعر أن الحكام و(الرعية) فيها يمشون على الصراط المستقيم ويتمسكون بالتعاليم الإسلامية وينفذون أحكامها سواء فى حياتهم العامة أو الخاصة؟؟!

* * *

فى مجال التقاضى انحصر اختصاص قضاة الشرع فى دائرة الأحوال

الشخصية والحبوس أى الوقفيات وشئون الأيتام، أما الحكم فى الجرائم فقد أو كل أمره إلى من كان يطلق عليه لقب الوالى. وحتى فى الميدان الذى ترك لقضاة الشريعة فقد كان الطواغيت من أوليا ء الأمر ونوابهم بل وحتى الجوارى والطواشى والخصيان يتدخلون ويضغطون على القضاة ليصدروا أحكاماً تتوافق مع هواهم ومصالحهم ومن كان يرفض يتعرض لمحن وبلايا تفوق طاقة البشر.

ولضيق الحيز المتاح نضرب أمثلة سريعة لما كان يتعرض له بعض قضاة الشرع فى عهود الدولة المملوكية التى حكمت مصر ما يقرب من ثلاثة قرون (من ٦٨٤ إلى ٩٣٦هـ) : امتحن كل من تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب السبكى ووالده من قبله وابن حجر العسقلانى امتحانا رهيبا وقد ذكر محنة الأخير تلميذه محمد بن عبد الرحمن السخاوى فى كتابه: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع حتى أنه (العسقلانى) كره كلمة القضا ء سماعا وكتابة وإملاء.

أما أقضى القضاة عبد الرحمن العلامى فقد لفق له ابن السامـوس نائب السلطنة فى عهد الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون (٦٨٩ / ٦٩٣ هـ) تهماً مستشنعة أخفها اللواط بالشباب الأمرد (انظر تفصيلاتها المخزية فى: الطبقات الكبرى لتاج الدين السبكى).

وإذ أن الوالى الذى كان يحكم فى الجنايات إما تركى أو شركسى جهول فإن ما كان يقضى به من عقوبات أبعد ما يكون عن روح القيم الإسلامية، مثل تحرى العدل وإتاحة الفرصة للمتهم ليدافع عن نفسه وتناسب الجزاء مع الجرم.. إلخ.

ولذلك لم يكن مستغربا أن نسمع عن جزاءات لا أصل لها لا فى القرآن ولا

فى السنة مثل:

الخوزقة والتجريس وسمل العيون والتحريق بالنار وتقطيع أجزاء الجسم عضوا وراء عضو مع شيه على نار هادئة، وطبق المحبس أى سد باب السجن بالبناء وترك من فيه بلا ماء أو طعام!!! وقد فعل ذلك الحجاج بن يوسف الثقفى مع عشرات من آل البيت فيهم شيوخ ونساء وأطفال، وكان واليا على العراقين فى عهد عبد الملك بن مروان، وهو تابعي لازالت بعض كتب صحاح السنة تحمل رواياته لعدد من الأحاديث النبوية فى الوقت الذى يشترط فى الراوى أول ما يشترط أن يكون عدلاً!!

هذه هى العهود التى يدعى الوعاظ وأئمة المساجد أن الشريعة كانت مطبقة فيها!!!

* * *

إن كاتب هذه السطور رغم اقترابه من السبعين فمازال يعد نفسه طالب علم ، وكل يوم يمر عليه دون تحصيل علم جديد لا يحسبه من عمره، ومن هذا المنطلق فهو يتوجه إلى الأخوة الوعاظ والخطباء وأئمة المساجد ومقيمى الشعائر الذين يدعون أن أحكام الإسلام كانت مطبقة من قبل الخلفاء والرعية من أربعة عشر قرنا حتى ألغاها الاستعمار أن يقدموا الأسانيد العلمية الموثقة على دعواهم هذه وسوف يكون أول المقتنعين.

تجربة المدينة المنورة

نواصل مناقشة مقولة بن بيللا: إن أحكام الإسلام لم تكن سارية سوى أربعين عاما وادعاء خطباء المساجد والوعاظ أن الشريعة ظلت مطبقة لأربعة عشر قرناً حتى شطبها الاستعمار!!!

والأربعون عاما المذكورة هي فترة النبوة المعصومة والخلافة الرشيدة والبعض يسقط منها الشطر الأخير من حكم عثمان بن عفان لأنه خالف فيه سنة النبي صلى الله عليه وسلم ونهج الشيخين (أبي بكر وعمر) وذلك بشهادة كثير من كبار الصحابة منهم : عائشة وعمار وأبي ذر الغفاري، وأيضاً خلافة على بن أبي طالب جميعها لأنه نقل مقر الخلافة من المدينة إلى العراق (الكوفة) فضلاً عن أنه قضاها في حروب مستمرة مع عدد من الصحابة:-

عائشة وطلحة والزبير (في الجمل) ومعاوية (في صفين) ثم الخوارج (كان على رأسهم جماعة من خيرة الصحابة الذين حظوا برضى الرسول عليه الصلاة والسلام حتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى. ولو أن الدراسات التاريخية الحديثة تحاول التعتيم على هذه الحقيقة).

والمفكر الجزائري محمد أركون يسمى تلك الحقبة بـ (تجربة المدينة) وإذا كان الثابت أن أحكام الإسلام هيمنت عليها فذلك مرجعه إلى تفردها بخصائص متميزة لم ولن تجتمع لفترة أخرى وبتعبير أوضح كانت هناك أسباب حتمت تطبيق الشريعة نذكر منها الآتي:-

(١) وجود الرسول عليه الصلاة والسلام بينهم وما كان يبثه فيهم من شحنة إيمانية قوية وإن استمرت (هذه الشحنة) مع الراشدين بدرجة أقل.

(٢) نزول جبريل عليه السلام بالوحي وحضوره بعض مجالس الرسول وبعد انصرافه كان يقول لمن حوله: هذا جبريل أتاكم يعلمكم شئون دينكم كما كان جبريل يسير في دروب المدينة على هيئة صحابي حسن الصورة اسمه دحية الكلبي. وهذه تجارب شعورية فذة لم ينلها جيل من المسلمين بعدهم، بالإضافة إلى اشتغالهم بـ "حفظ القرآن" ودراسته مع السنة النبوية، وسؤالهم الرسول عن كل صغيرة وكبيرة تعرض لهم.

(٣) كان مجتمع المدينة محدود العدد لا يتجاوز عشرات الألوف أي أن تعداده لا يزيد على عدد سكان شارع متوسط من شوارع القاهرة، ومحدودية العدد لها أهمية كبيرة في ضبط سلوك الأفراد، وهذه ظاهرة ملحوظة تتضح من مقارنة أحوال الأفراد في القرية أو المدينة الصغيرة مع أحوالهم في العاصمة أو المدينة الكبيرة.

(٤) رغم الغزوات والسرايا وما كانت تدره على المجتمع من دخول فقد كان مجتمعها فقيرا يعاني فيه (المهاجرون) على وجه الخصوص أشد المعاناة: كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشد الحجر على بطنه من الجوع وفعل مثله صاحباه أبو بكر وعمر، وكانت لا توقد في بيوت زوجاته التسع نار لمدة شهرين متواليين يعيش خلالهما أهله على الأسودين (التمر والماء)، ومات ودرعه مرهونة لدى يهودي مقابل حفنة من طعام، وكان علي بن أبي طالب يعمل بيديه أعمالا شاقة ليحصل على قوته وقوت أسرته، وأرهقت الخدمة المنزلية زوجته فاطمة بنت محمد فسألت أباها خادما يخفف عنها ذلك العبء، فاعتذر

لهما بضيق ذات اليد ، وكان لدى الزبير بن العوام فرس وحيدة وكانت زوجته أسماء بنت أبى بكر وأخت عائشة تسير ثلاثة أميال ذهابا ومثلهم إيابا لتحضر علفا للفرس عبارة عن نوى تحمله على رأسها ، وكان عدد من المهاجرين لا يجد مسكنا يؤويه فأسكنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جانب من مسجده وكانوا يأكلون من الصدقة وهم (أهل الصفة) وكان البعض لايجد ما يحارب به سلاحا أو دابة فيتخلف عن الغزوات أو السرايا يحمله الغيظ على البكاء وهم (البكاءون) وكان لبعض الأزواج ثوب واحد يتناوبه الرجل والمرأة، وكان من النساء من تغسل ثوبها الوحيد من دم حيضها وتجلس فى انتظاره حتى يجف.

وفى أول يوم تولى أبو بكر فيه الحكم خرج وعلى كتفيه قطع أقمشة يبيعها فى سوق المدينة ليقتات من ربحها وعائلته، وكانت الرقع تملأ ملابس عمر وهو خليفة وأخذ قميصاً من ابنه عبد الله ليكمل ثوبه (لأنه كان رجلا طويلا).

وهناك عشرات من الأمثلة التى تقطع بأن مجتمع المدينة حينذاك كان مُضيقاً عليه فى الرزق - ولو أن الحال تغير إلى النقيض بعد الفتوحات وعلم الاجتماع الدينى بل ما نراه بأعيننا ونلمسه بأيدينا يخبرنا أن الفرد والمجتمع صاحب الدخل المعدوم أو المحدود يهرع إلى الدين يجد فيه ملاذاً.

(٥) كان مجتمع المدينة مهدداً ومستهدفاً:

فى الداخل اليهود والمعارضون وهم أفراد من قبيلتى الأوس والخزرج ساءهم أن يسيطر القرشيون الوافدون على مقدرات بلدهم وقد سماهم القرآن الكريم . (المنافقين).

وحول المدينة كان هناك صناديد قريش فى مكة (قبل فتحها). حتى القبائل التى بايعت الرسول فى عام الوفود لم تكن صادقة فى إسلامها ومن ثم انتفضت بعد وفاته ونشبت الحرب الأهلية التى أطلق عليها المؤرخون المتأخرون (حرب الردة) وعلى أطراف الجزيرة دويلتا المناذرة والغساسنة ثم الروم والفرس والحبش، تلك هى الأخطار الداخلية والخارجية التى ألمت بمجتمع المدينة إذن هو كان مجتمع حرب ومن ثم كانت العقيدة الدينية أمضى الأسلحة لشحذ الهمم وتجييش المسلمين وتحميسهم لحماية أنفسهم.

* * * *

هذه هى تجربة المدينة، وتلك كانت الأسباب الموضوعية التى صنعتها، ومن ثم فإن المناداة بتطبيق الشريعة وتقديم الدليل بضرب المثل بهذه التجربة هو نوع من خداع النفس ولا أدل على ذلك من أن تلك التجربة لم تتكرر على مدى أربعة عشر قرناً هى عمر الإسلام ولن تتكرر.

متى يتجاهل الإسلاميون مبادءهم؟

تعمدت كتابة هذا المقال بعد انتهاء مهرجان الاستفتاء على الحقبة الثالثة لرئاسة الجمهورية لمبارك* ، والذى ختم بـ "تكريز ونعمة" من رؤساء شئون التقديس: شيخ المسلمين ومفتى عموم الديار وبطرك القبط، وقريبا سيعلن عمن يحتل مكان طيب الذكر "حايم ناحوم أفندى" حاخام يهود مصر السابق، وذلك حتى يكمل مثلث البركة للحاكم.

والمؤسسات الدينية الرسمية - منذ ظهور الأديان الإبراهيمية أو السامية الثلاثة وحتى الآن. بل وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها - وهى "سمن على عسل" مع الطواغيت الحاكمة هى تضفى عليها المشروعية التى تفتقدها وتفتقر إليها ، والأخرى فى المقابل تغدق عليها الرضا السامى والإنعامات السنية.

ولكن نوعا آخر من "مقاولى الأعمال الدينية" لهم رأى مخالف ، وهم حاليا يشكلون "القطاع الخاص" فى هذا السوق، لذا فهم يعارضون السلطة وإن جاءت معارضتهم على حساب مبادئهم وتراثهم والتاريخ الذى يتشبثون به ويحلمون يقظة ونياما بعودته ، لكنهم عندما "يصلون" وتتحقق أمانيهم يتنكرون لطروحاتهم الآنية ويتبنون خطاب المؤسسة الدينية الرسمية بل وربما

---

* كتب هذا المقال بمجلة اليسار عقب انتهاء الاستفتاء على رئاسة مبارك الثالثة.

زايدوا عليها، حدث هذا في الماضي ويحدث حالياً في الوقت المعاصر في أقرب البلاد إلينا وألصقها بحدودنا.

* * *

الإسلامويون على اختلاف تنويعاتهم عارضوا الولاية الثالثة لمبارك، وهم في هذا المسلك ينطلقون من أرضية سياسية وليست دينية، وهذا ما كشفناه منذ أمد بعيد وما تؤكده مواقفهم المتناقضة مع مرور الأيام لنصل إلى حقيقة لا خلاف عليها ولا اختلاف وهي أن شعار تطبيق الشريعة سياسي بحت وملمح الدين الذي يتخفى وراءه شفاف ورقيق لايخدع أحداً.

* * *

في الإسلام الولاية الكبرى أو الإمامة العظمى وهي بتعبيرنا الحديث "رئاسة الدولة" ليست موقوتة ولا محدودة بزمن معين، أحد الخلفاء تربع على عرش مصر ستين عاما. (عشر ولايات بحسابنا الحاضر) وحدثت في عصره الميمون شدة (مجاعة) لم تر المحروسة لها مثيلا منذ أيام مينا حتى انتهاء المدة الثانية لمبارك، ومع ذلك لم يفكر أحد لا من العامة، ولا من رجال الدين (كانوا يمثلون الطبقة المثقفة أو الانتجلنسيا)، أن يقول (لأ) أو يطلب منه أن يتنحى عن الخلافة!!!

لماذا؟

لأن التراث الإسلامي سواء في التاريخ أو الفقه لا يتصور مجرد تصور أن تكون الخلافة أو الإمامة العظمى لا عند السنة ولا عند الشيعة موقوتة.

فى التاريخ.

لم يسبق لخليفة منذ أبى بكر - رضى الله عنه - حتى السلطان عبد المجيد الذى ألغيت الخلافة العثمانية فى عهده فى ٣ مارس ١٩٢٤ أن وقتت ولايته (الخليفة) بزمن محدود إذا حل ترك الحكم، بل يظل خليفة إلى أن يموت حتف أنفه أو يقتل أو يعزل بقوة السلاح. وبهذه المناسبة نذكر أنه لم يحدث منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه أن تنازل خليفة عن الخلافة إثر معارضة سياسية سليمة.

أما في الفقه السياسى الإسلامى:

فإن أشهر من ألف فيه أبو الحسن الماوردى وأبو يعلى الفراء الحنبلى وكانا متعاصرين وكتبا كتابين يحملان عنواناً واحداً هو (الولايات السلطانية) تكلما فيهما عن «استدامة الإمامة" لا عن تأقيتها أو تحقيبها . ولم يكن يدور بخلد واحد منهما أن هناك "إمامه موقوتة" أو غير "مستديمة" هذا هو حكم المبادىء فى خصوصية مدة الولاية العظمى أى رئاسة الجمهورية.

ولكن لما كان الإسلامويون يتخذون من تلك المبادىء ستارة يخفون خلفها مطامعهم السياسية فى الحكم شأنهم فى ذلك شأن أى حزب "علمانى" أو "دنيوى" حسب تعبيراتهم الخبيثة، فإنه لا مانع لديهم من تخطيها وتجاوزها وتجاهلها . . إلخ، إذا حالت دون تحقيق شهوتهم العارمة للسلطة.

وليست هذه هى أولى مخالفاتهم العلنية لمبادئهم ولن تكون الأخيرة، ومن هنا ، فقدوا المصداقية، وانكشفت حقيقتهم لدى المواطنين.

الفلاسفة والوعاظ

(منذ العصور الغابرة حاول الإنسان إدراك علاقته بالعالم المحيط، وطرح مسألة أصل وعيه وجوهره وقانونيات تغير ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية) - المعجم الفلسفي ترجمة توفيق سلوم - الطبعة الأولى ١٩٨٦ - دار التقدم / موسكو.

(ومن هنا نشأت الفلسفة كما يقول أرسطو من الدهشة وحب الاستطلاع وتميزت بنزعة نقادة "من النقد" تزعزع اعتقادات الإنسان الراسخة وتحرر تفكيره من سلطات التقليد والنقل وعدم النظر إلى الأفكار التقليدية على أنها نهائية ومطلقة تسمو على النقاش وترتفع على الجدل وغير قابلة للمراجعة والتعديل، وكل مجتمع يعمد إلى وضع قيود على التفلسف الحر مهما كانت الدوافع والأسباب مجتمع متخلف ثقافيا) باختصار من مادة "فلسفة" بقلم كريم متى ص ١٥٤ من "الموسوعة الفلسفية العربية" - المجلد الأول : المصطلحات والمفاهيم - رئيس التحرير د/ معن زيادة الطبعة الأولى - من إصدارات معهد الإنماء العربي / بيروت.

* * *

هذه بديهيات يعرفها طلاب السنوات الأولى في أقسام الفلسفة بكليات الآداب ولكن الذي حدث في "الندوة الفلسفية الخامسة" للجمعية الفلسفية المصرية وكاتب هذه السطور عضو فيها، أثبت أن المفاهيم النظرية شيء وتحقيقها عملا أو تعينها وتشيئها على أرض الواقع شيء آخر مختلف تماما.

كان موضوع الندوة هذا العام هو "نحو فلسفة إسلامية جديدة" وساهمت د / فريال حسن مدرس الفلسفة بكلية التربية جامعة عين شمس ببحث عنوانه (الفلسفة الإسلامية ومطالب التواصل الحضارى: إمكان أم استحالة) من مقدمة وثلاثة فصول تحدثت فى الأول عن موانع التواصل الحضارى والثانى عن غياب التسامح الثقافى وفى الثالث عن أسس التواصل الحضارى أمام الفلسفة الإسلامية.

كانت الباحثة على قدر وفير من شجاعة الرأى نفتقده فى كثيرين خاصة فى هذه الأيام التى يستميت فيها الخطاب الظلامى - حتى داخل الجامعة - فى الهيمنة والتسيد والسيطرة، مما دفعنى إلى التعقيب على بحثها بعد إلقائه محييا ومشيداً به وبها ومطالبا بالمزيد من أمثالها.

تحدثت عن الجمود الدينى والتزمت الثقافى وعن إعلان "الإنسان الإله" وتحديات الواقع وهل هو إعلان نهاية وموت "النص الدينى" أم أن هذا النص يبقى بجوار "الإنسان الإله"!!

وشرحت موانع التواصل الحضارى وركزت على التكفير وأنه ليس جديداً فى الساحة الإسلامية بل له تاريخ عريق وقد مارسته جميع الفرق إزاء "الآخر" حتى التى اشتهرت بالعقلانية مثل المعتزلة".

ثم تناولت "النص الدينى": وهو فى رأى الباحثة من أشد موانع التواصل الحضارى ولكنها أرجعت ذلك إلى رؤية البشر له، ومن ثم نادت بالأخذ بالتأويل العقلى وبإطلاق العنان للعقل فى ذلك انطلاقا بلا حدود.

وبذات الكيفية من الجرأة والتأصيل تناولت "السنة النبوية". ثم «الفلسفة الإسلامية» كما منهجها أبو حامد الغزالى وخلصت إلى نتيجة حاسمة على

درجة كبيرة من الخطورة وهى : إن عالمنا الإسلامى انعزل مع الغزالى عن العقل والفلسفة بل وعن إنسانيته وكاتب هذه السطور يرى أن النتيجة على خطورتها صحيحة ولكنها اتسمت بأحادية النظرة وأن هناك ظروفا تاريخية اجتماعية واقتصادية واكبت (برمجة) الغزالى للفلسفة هى التى أدت إلى عزلة المسلمين عن العقل والفلسفة.

ثم تحدثت عن غيبة التسامح الثقافى الذى يؤدى إلى إجهاض كل فكر مخالف (لما قال به السلف) وإن هذه هى علة ازدحام كتب التراث بمشتقات الكفر ومرادفاتها مثل الزندقة والضلال .. وانتهت إلى ضرورة الإصلاح الدينى وبجانبه العلمانية وكيف أنهما وجهان لعملة "التواصل الحضارى " والتنوير وعقل التنوير الذى لا سلطان عليه إلا العقل ذاته.

ومن أسف أن الحيز المتاح لا يسمح بعرض المزيد من هذه الدراسة الشجاعة.

المهم – أنه ما إن انتهت د/ فريال من تلخيص دراستها حتى غدت هدفا لهجمة شرسة ممن؟؟ من بعض رؤساء أقسام الفلسفة وأساتذتها انهالوا عليها تجريحا بعبارات خطابية إنشائية تعودنا سماعها فى المساجد من الخطباء والوعاظ ولم يكن يجدر بحال من الأحوال تداولها فى "جمعية فلسفية" تعقيبا على بحث فلسفى اتسم بقدر ملحوظ من الأصالة والموضوعية وشجاعة الرأى الغائبة كل هذا يدفعنى إلى أن أطلب من (الأخ) أ.د حسن حنفى أمين عام الجمعية الفلسفية المصرية أن يغير اسمها إلى "جمعية الحكماء المصريين" تأسيسا على تعريف "الجرجانى" للحكماء بأنهم الذين يكون قولهم وفعلهم موافقا للسنة".

الهجوم على السنة ورموزها

الهجوم على السنة ورموزها مثل أبى هريرة وعكرمة مولى ابن عباس والأوزاعى "فقيه الشام" - طيب الله ثراهم - أصبح (موضة) أو صرعة كما يقول اللبنانيون يمارسها البعض هنا أو هناك حتى بين الذين ينسبون أنفسهم إلى الأصولية.

القدح فى الصحابة والتابعين الذين نقلوا إلينا السنة يتم بكيفية زائفة بعيدة عن الروح العلمية وعن الموضوعية ، وذلك بانتقاء بعض ما قاله خصومهم فيهم! فى حين إنه لا توجد شخصية : سياسية أو علمية لم تنج من ذكر مثالب ، فالشيخان (أبو بكر وعمر) وذو النورين عثمان رضى الله عنهم ما زالوا حتى هذه اللحظة هدف ذم لدى الشيعة الإمامية الإثنى عشرية (إيران) ، وكانوا كذلك عند بعض فروع المعتزلة والخوارج أما الإمام على - كرم الله وجهه - فقد كان موضع سب وقذف على منابر الأمويين مشارقة ومغاربة (ماعدا عمر بن عبد العزيز رحمه الله) - هؤلاء هم الخلفاء الراشدون.

وفى مجال العلم يكفى أن نذكر أن البخارى صاحب أصح كتاب بعد القرآن الكريم رماه الإمام ابن حجر العسقلانى ، وهو من هو - بالتدليس نعم بالتدليس. إذن من اليسير التقاط عبارات التعييب وإبرازها وإيهام القارىء - غير المتخصص - إنها هى التقييم الصحيح للشخصية ، وغض الطرف عما قاله الآخرون - وغالبا يشكلون الأغلبية - مدحا وإشادة وهذا المسلك مناف

لنهج العلماء النزيهين. وهو إن جاز فى جانب بعض الفقهاء، فإنه لايصح فى حق أئمة الأمة الأعلام، الذين حملوا إلينا أقوال وأفعال الرسول عليه الصلاة والسلام والذين تمتلىء كتب الصحاح والمسانيد برواياتهم.

* * *

ليس صحيحاً على الإطلاق أن تدوين السنة تأخر حتى منتصف القرن الثانى الهجرى ، بل بدأ مبكراً وكان بعض الصحابة يكتبها فى حياة الرسول عليه السلام منهم: عبد الله بن عمرو بن العاص - المدفون فى مصر نور الله ضريحه والمجال لايتسع لإيراد الأدلة على ذلك.

إن هدم السنة هدم للإسلام ذاته.

فما الذى عرّف المسلمين بـ : الصلاة والصيام والزكاة والحج؟

إن ما جاء بشأنها فى القرآن الكريم ورد مجملا والسنة هى التى فصلته وهذا مجرد مثال.

وكما كان يوصف شعر ما قبل الإسلام (يسمونه الشعر الجاهلى) بأنه "ديوان العرب" فكذلك فى رأينا أن السنة هى "ديوان الإسلام" ولله المثل الأعلى ثم لرسوله وقد ضرب الله عز وجل مثلا لنوره بالمصباح والمشكاة.

من أراد أن يعرف حقيقة الإسلام فعليه بكتب الأحاديث ومؤلفات السيرة النبوية (التى تمثل الجانب التطبيقى) وخاصة التراثية وليقرأها بعين مفتوحة وبصيرة واعية وذهن يقظ وعقل نفاذ ولايكتفى بقراءة سطورها بل ما بينها ذلك أن المسكوت عنه فيها لا يقل خطراً عن المسطور، وليتجرد وهو يطالعها عن كل عاطفة ولينف عن نفسه أية فكرة سابقة . إنه إن فعل ذلك فسوف تتجسم أمامه صورة شبه كاملة لتلك الفترة النادرة فى تاريخ العرب ونعنى بها

فـتـرة ظهـور الإسـلام والدعـوة إليـه بالحـسنى والكلم الطيب فى مكة ثم نشوء الدولة القرشية فى يثرب - المدينة - وكيف تغير الخطاب كلية لدى النصوص كما مارست موجبات قيام الدولة فعالياتها الطبيعية على التحركات العملية وهو ما يحدث فى أى مكان طوال تاريخ البشرية.

إن اختلاف طور "الدعوة إلى الله" عن طور "الدولة" وتحول الإسلام من دين فى مكة إلى دولة فى يثرب - المدينة وانقلاب لهجة الخطاب فى النصوص وتباين الأفعال فى الحقبتين، كل ذلك صورته السنة بشقيها القولى والعملى أدق تصوير وأبرزته بكيفية محسوسة وهيئة ملموسة ، حتى أننى لطول قراءاتى فى السنة والسيرة أتعجب من الذين يسألون بسذاجة شديدة يحسدون عليها :

كيف ترتكب جماعات العنف فى تيار الإسلام السياسى كل هذه الأعمال؟!

* * *

إذن الهجوم على السنة ورموزها بقدر ما هو هدم للإسلام فإنه يضر أبلغ الضرر بما ندعو إليه وآخرون كثيرون من ضرورة كتابة التاريخ العربى الإسلامى كتابة علمية موضوعية محايدة، لأن السنة والسيرة النبوية تمدان الباحثين والدارسين بكنز ثمين لا تقدر قيمته من المادة اللازمة للتاريخ الصحيح لتلك الحقبة على وجه الخصوص، والذى فى نظرنا أنه لم يكتب للآن بموضوعية.

حتى لا ننتكر
مأساة أفغانستان

في سنة ١٩٨٦ م سافرت إلى أفغانستان بعثة من جريدة الأهالى برئاسة أ. حسين عبد الرازق وكان يرأس تحريرها . ضمت الصحفية النابهة أ. أمينة النقاش وكاتب هذا السطور.

مكثنا قرابة شهرين . تجولنا خلالها في شتى بقاعها. وزرنا مواقع مختلفة وحاورنا عددا من المسئولين بداية برئيس الجمهورية ومروراً بـ "مجلس علما أكابر" وانتهاء بالموظفين الصغار وتحادثنا مع الناس العاديين فى المصانع والأسواق والمتاجر والمساجد والشوارع .. إلخ.

ثم عدنا : أما الأستاذان حسين وأمينة فقد نشرا تحقيقات صحفية أحدثت آنذاك زلزالا . وكتبت أنا أربع مقالات وذكرت ماشاهدت بعينى وسمعت بأذنى ولمست بيدى ووصفت (المجاهدين) بأمانة وتساءلت إذا كانت المسألة جهادا فى سبيل الله فما الذى يدعو الصين والولايات المتحدة الأمريكية واليابان لمساعدتهم، وتحدثت عن زراعة المخدرات وتخليقها وتصديرها بمعرفة زعماء المجاهدين وبمشاركة جنرالات ضياء الحق وعن المتاجرة برؤوس المتطوعين وعن الأرصدة الأسطورية فى بنوك الفرنجة لأولئك الزعماء.. إلخ.

وكأنما قلت كلمة الكفر فانفتحت علىَّ طاقات من الجحيم.

هاجمتنى المجلات "الإسلاموية" شهرية وأسبوعية وصحف أحزاب

المعارضة التى ركبت الموجة الدينية بحثا عن أنصار ومؤيدين تفتقر إليهم، وطعنت فى دينى وشرفى. أحدهم أقسم بالله أننى فى صباى الباكر كنت أعمل صبى قواد أسرح على أرصفة حارات "كلوت بك" لاصطاد الزبائن للعواهر والزوانى أيام كان البغاء مسموحا به رسميا . وفى سلوكى الأخلاقى: ذكر آخر أن مصادره الخاصة جداً أكدت له أننى "شيخ شريب" درجة أولى وأننى لا أخط حرفا إلا وأنا مسطول بأنفاس الغبارة والهبو . وكنت كلما دخلت قاعة جلسة أو غرفة محامين هب فى وجهى من أعرف ومن لا أعرف من الزملاء يعاتبوننى بل يعنفوننى على (مقالات أفغانستان)، ذلك أن شعبنا الطيب كانت قد أجريت له عملية غسيل مخ تولاها ببراعة فائقة الإعلامان السعودى والخليجى وتبعهما المصرى ، وحجبت عنه تماما ما كانت تنشره حتى بعض الصحف الأمريكية والأوروبية عن (المجاهدين)!.

وابتلعت حكومة الحزب الوطنى (الناصحة) الطعم الذى ألقته إليها المخابرات المركزية الأمريكية (السى .أى .إيه) فأرسلت الألوف من شباب مصر للجهاد فى أفغانستان، أصبحوا الآن شوكة حادة فى حلقها، وتبرع المواطنون السذج لـ (المجاهدين) بقروشهم القليلة التى يحصلون عليها بعرقهم وجهدهم.

* * *

وبعد سنوات ست تمكن (المجاهدون) بطريق الخيانة وحدها من التغلب على جيش الدولة الاشتراكية. ودخلوا كابول . وهنا ظهروا على حقيقتهم وتبخرت الهالة الزائفة من القداسة التى كانوا يحيطون بها أنفسهم وثبت ثبوتا قاطعا كل ما قلناه عنهم والذى كان الكثيرون يعتبرونه افتراء وبهتانا - بل بدا

ما ذكرناه قطرة من محيط مما نشر عنهم وما أثبتوه هم أنفسهم بأفعالهم - وتأكد لكل ذى عينين أن الجهاد لم يكن فى سبيل الله ولتمكين الإسلام فى أفغانستان بل من أجل المغانم والسلطة والرئاسة والثروات واللذائذ والمتع والشهوات . واقتتل (المجاهدون) قتالا مريرا ضاريا وحشيا. ودمرت العاصمة كابول خلال أشهر قليلة من حكمهم وسقط قتلى وجرحى من المدنيين أضعاف ما حدث خلال ١٤ عاما عندما كانوا يحاربون الحكومة (الكافرة). وأصبح أهلها يتحسرون ويبكون ندما على أيام (الحكم العميل)!

وأسقط فى يد إخواتنا الإسلامويين سواء فى مصر و السعودية بالذات ، وفى سائر الدول العربية والإسلامية وخاصة أولئك الذين كانوا يجلسون على المنصات فى المؤتمرات والندوات التى كانت تقام كل شهر تقريبا لنصرة (المجاهدين). والتزموا الصمت وتصببت جباههم عرقا غزيرا ثم تواروا خجلاً من ممارسات (المجاهدين) ومن ظهورهم بهذه الصورة البشعة، وفشلت كل الوساطات الملوكية والسلطانية والأميرية. حتى الاتفاق الذى عقد فى ظل الكعبة المشرفة لم يحترمه (المجاهدون) واضطر المتحدث الرسمى بلسان (الكبرى) أن يصرح:

إنهم ليسوا مجاهدين ولا حتى مسلمين!!!

لكى لا تتكرر مأساة أفغانستان فإننى أناشد القاعدة الجماهيرية العريضة فى مصر المحروسة ألا تنساق وراء الشعارات البراقة المتسربلة برداء الدين . وأن تعمل عقلها وتفتح عيونها وتوسع أفقها. وأن تحدق جيداً فى هؤلاء الذين يرفعون تلك الشعارات وأن تتقصى حقيقتهم وتدقق فى هويتهم وتتعرف على كل أحوالهم، وحتم لازم عليها، بل هو فرض أن تسأل كل واحد منهم:

أيها الأخ المبجل المهيب:

أين تسكن؟ كم يبلغ رصيدك أو أرصدتك فى البنوك داخلية أو خارجية (جزر البهاما مثلا)، كم سيارة لديك وما هى ماركاتها ومن أين حصلت عليها؟ ما هى مصادر دخلك؟ فى أى مستوى تعيش أنت وأسرتك؟... الخ

فإن كانت الإجابات عن هذه الأسئلة وأضرابها تُنبيء أن الواحد منهم يعيش كالرسول محمد عليه الصلاة والسلام والصديق والفاروق وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم وأرضاهم، أى وفق تعاليم الإسلام الصحيح. فهو صادق.

أما إن كان على نقيض ذلك وهو ما تؤكده الشواهد والأدلة بالنسبة لـ ٩٨٪ منهم - فهم إذن طلاب حكم ومغانم ورئاسة وثروات وشهوات ولذائذ ومتع وحياة مترفة ناعمة وزواج بفتيات أبكار صغار فى عمر حفيداتهم... ألخ.

فاحذروا إنهم كإخوانهم (المجاهدين).

وسوف يتقاتلون بضراوة وشراسة ووحشية مثلما يفعل هؤلاء.

والعاقل من اتعظ بغيره.

اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد..

٧٠٠ زوجة أبكار دائماً

شيخ جسيم مهيب ظهر فى التليفزيون وبشر من يدخل الجنة بسبعمائة زوجة عذارى، يتفخذهن كلهن يوميا وبعد أن ينكح الواحدة منهن ويمتع نفسه ومذاكيره بها تعود بكراً مختومة كما كانت وهكذا وهكذا إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين.

ثارت أقلام على صاحب الفضيلة وأصلته بنيران حامية: هجوما وتهكما وتطاولا على شخصه الوقور وعلى المصادر التى استخرج منها هذه البشرى السارة المفرحة التى أدخلت على قلوب المشاهدين الغبطة والحبور، ودلت بذلك على أمرين:

الأول

قلة بضاعتها الدينية وأنها في حاجة ماسة إلى دروس خصوصية أو تقوية فى "مادة الدين" وكاتب هذه السطور على استعداد لإعطائهم إياها دون مقابل.

ذلك أن الواعظ المهاب لم يخطىء فيما بشر به إلا فى جزئية واحدة وهى عدد الزوجات الذى تراوح فى كتب الأحاديث ومؤلفات التفسير ما بين مائة إلى اثنتين وسبعين والأصح هو الأخير منهن : اثنتان من نساء الدنيا والسبعون من الحور العين والكواعب الأتراب.

أما باقي الفتوى أو البشارة فصحيح وله أسانيده القوية بل إننى أعتب على

الشيخ أنه كتم عن مشاهديه علما حذر الرسول صلى الله عليه وسلم من كتمانه ونعنى به هنا: وصف "زوجات الجنة" وذلك حتى تكتمل فرحة المشاهدين وتتضاعف سعادتهم:

عن سفيان الثورى.. عن عبد الله بن مسعود قال:

اقتحم على أهل الجنة نور في قبابهم كاد أن يخطف أبصارهم فإذا به نور (سن) حوراء ضحكت فى وجه وليها أي سيدها وزوجها). وعنه أيضاً: "إن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن" ويصفهن ابن قيم الجوزية وهو أحد منابع سفر تكوين أفكار "الجماعات" بأنهن :"العواشق المتحببات، الغنجات، الشكلات، المتعشقات، الغلمات أى الملتهبات شهوة وشبقا للوطء والمباضعة" ويرى مقاتل بن سليمان - وهو من قدامى مفسرى القرآن الكريم :"إن الضيق يستجب فيهن فى أربعة مواضع: فمها وخرقى أذنها وأنفها "وما هنالك" ولعل القارىء فطن إلى ما يقصده مقاتل بعبارة: "وما هنالك".

والأحاديث التى وردت فى المفاخذة اليومية الأبدية لكل واحدة منهن وعودة العذرية أو البكارة لها من جديد. هذه الأحاديث رغم أنها رويت عن بعض كبار الصحابة فإن "الصيارفة" صيارفة الحديث لا يعدمون أن يستخرجوا من بين رواتها من يقولون عنه: "لايعرف حاله" أو "أنه ليس بشىء" أو "أنه واهٍ" أو "أنه متروك" فيرد عليهم "الجهابذة" جهابذة الحديث بأن تعدد رواية الحديث الضعيف تقويه وترفع درجته.

إنما هناك حديث صحيح رواه الترمذى فى جامعه عن قتادة عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من

الجماع ، قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك، قال يعطى قوة مائة" ويستنتج شراح الحديث ضرورة وجود مائة زوجة لتلقى هذه القوة الهائلة الخارقة على النكاح إذ أنه يستحيل على زوجة واحدة أو أربع أن تطيقها".

وطبقا لهذا الحديث "الصحيح" الذى رواه الترمذى أحد أصحاب الصحاح الستة التى تلقتها الأمة بالقبول والتجلة يكون لكل مسلم يدخل الجنة مائة زوجة.

نخلص من ذلك كله أن صاحب الفضيلة أو فضيلة الصاحب – جزاه الله عن الفقراء والمحرومين فى الدنيا من المسلمين خير الجزاء وأوفاه – لم يخطىء فى نقل هذه البشرى العظيمة لمشاهدى التليفزيون – خاصة المعوزين والمطحونين – وإن بالغ فى ذكر عدد الزوجات.

لمزيد من المعلومات عن "حريم المسلم فى الجنة" وأوصافهن وكافة أحوالهن يمكن الرجوع إلى كتاب "حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح" للإمام ابن قيم الجوزية وهو مطبوع عدة طبعات فى مصر ولبنان.

الآخر "الثانى":

هو هبوط الوعى السياسى لدى مهاجمى الواعظ المهاب ذلك أنه جزء من "المؤسسة الدينية" بمعناها الواسع، هذه المؤسسة فى مقدمة مهامها مساندة النظام الحاكم وإضفاء الشرعية التى يفتقدها عليه وتزييف وعى القاعدة الجماهيرية العريضة وصرف انتباهها عن الواقع الأليم الذى تعيشه حتى لاتتحرك وتعمل على تغييره. ويتم ذلك بإقناعها بأن هذه الدنيا جيفة وطلابها كلاب وأنها عرض زائل وزخرف وزينة وأنها لاتلبث أن تفنى ومهما طال عمر المسلم فيها فمصيره الموت، وأن الواعى حق الوعى هو من يعرض عن الدنيا

الدنيـة، وأن يولي التـفـاته إلى الجنة ويعـمل من أجلهـا حـتى يفـوز بلذائذها ومتعـهـا من خمور وألبان وعسل مـصفي وأنهار وعـيـون وفـواكه وريحان ولحوم وفرش وبسط وملابس حريرية وتيجان على الرؤوس وأهم من ذلك:

الولدان الذين هم كاللؤلؤ المنثـور والحور العين والكواعب الأتراب اللاتي لم يطمثهن من قبل إنس ولا جان وفي كل مرة تعود الواحدة منهن عذراء بكرا لم يفض خاتمها مع منحه طاقة جبارة هائلة على المجامعة اليومية: في حديث أبي أمامه لها "للحورية" قُبُل شهي وله ذكر لاينثني".

هذا دور مرسوم بدقة متناهية تقوم به "المؤسسة الدينية" عن طريق الوعاظ والخطباء عبر أخطر جهاز إعلامي "التلفاز" وفي مقابل ذلك يغدق النظام الحاكم على أفرادها: الوظائف والرتب والعطايا والمنح والهبات.. إلخ.

حكم الواقع على الفقه

عن عبد الرازق عن الأوزاعى عن مكحول قال:

(جرد عمر بن خطاب جارية فنظر إليها ثم سأله بعض بنيه أن يهبها له فقال إنها لاتحل لك) رواه عبد الرازق في مصنفه والأوزاعى فى سننه. وجردها أى عراها.

آنذاك كان المجتمع أبويا بطريركيا وكانت التقاليد العشائرية تقدر الأب وتحترمه وتهاب شيخ القبيلة وتذعن لسلطته (أقر الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ذلك بشرط اعتناق شيخ القبيلة الإسلام) هذا من جانب.

ومن جانب آخر لم يتغلغل "الرقيق" بعد فى المجتمع الإسلامى بعامة وفى المدينة/ يثرب بخاصة ومن ثم لم تعرف له تأثيرات عليه.

* * *

ولكن بعد ما يزيد قليلا على قرن من الزمان تغير الحال تماما:

وجاء سفيان الثورى (٩٧ - ١٦١ هـ) وأجاز للرجل أن يبيح وطء أمته لغيره ، وللمرأة أن تبيح فرج أمتها لزوجها ولأخيها ولأبيها ولغيرهم - "موسوعة فقه سفيان الثورى" تجميع د/ محمد رواس قلعة جى - الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ - دار النفائس / لبنان . وبعد الثورى أفتى المزنى وابن جرير الطبرى بحلّية قرض الإماء اللواتي يجوز للمقترض وطؤهن - "اختلاف الفقهاء" للطبرى - دون تاريخ - دار الكتب العلمية - بيروت.

والشورى محدث ثقة وفقيه راسخ القدم أسس مذهبا فقهيا اندثر فيما بعد وهو من طبقة مالك (المدينة/يثرب) والليث بن سعد (مصر) والأوزاعى (الشام) وهو من أعلام أئمة القرن الثانى الهجرى وما تلاه من قرون.

والمزنى (٢٦٤ هـ) هو أنبغ تلامذة الشافعى الذى وصفه بأنه "ناصر مذهبه" أما الطبرى (٣١٠ هـ) فهو عمدة المفسرين والمؤرخين والذى قيل فى حقه. لو أن رجلا رحل إلى الصين ليحصل على تفسيره ما كان ذلك كثيراً، وكان صاحب مذهب فقهى إنما لم يجد أتباعا "يقومون به" أي ينشرونه، فما الذى حدا بأولئك الفقهاء الأكابر لإصدار تلك الفتوى التى قد يرى فيها القارىء أنها لاتعدو أن تكون: قوادة بالنسبة للمعير (صاحب الجارية التى يعيرها للغير) لأن الإعارة أو الإباحة أو الإقراض لاتتم إلا مقابل منافع مادية أو معنوية، كما تعتبر زنا بالنسبة للمستعبر والمقترض ودعك من الأمة (الجارية) فهذه مقهورة مغلوبة على أمرها..

وكيف يستسيغ (الحس المسلم) أن تعير امرأة مسلمة جاريتها لزوجها ليطأها ثم تعيرها لأبيها .. ثم لأخيها .. ثم لأحد جيرانها أو معارفها.. أو غيرهم؟؟ وما هو الوصف أو اللقب الحقيقى الذى تستحقه هذه المرأة؟ وهل غابت فتوى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى هذه الخصوصية عن أذهان أولئك الجهابذة؟

لضيق الحيز المتاح نوجز الجواب فيما يلى: المجتمع القبلى القديم تخلخل والتقاليد العشائرية قلمت أظافرها وأوشكت شمسها على المغيب والتقاليد (المدينية) هى التى طفقت تكون لها الغلبة والهيمنة لأسباب كثيرة ليس هنا مجال ذكرها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انتشر "الرقيق"

وتغلغل فى المجتمع وأصبحت له فعاليات بالغة التأثير على كافة المناحى: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ومعلوم أن (الفقه) منتج بشرى وأنه أحد تجليات المجتمع وإفرازاته ولا يمارى أحد فى جدليته مع الواقع العملى العيانى. فعندما يتفشى "الرقيق" فى كافة الطبقات - بداهة مع وجود فروق فى الكيف والكم لكل طبقة - وتغدو له موجباته الاجتماعية والاقتصادية القاهرة الغلابة لايسع (الفقه) إلا أن يذعن وما على (الفقهاء) إلا تقنينها ولصق بطاقة الهوية الدينية عليها، فإذا كان إقراض (تسليف) الجوارى تفشى وأصبح تقليدا من المستحيل مقاومته فعلى الفقهاء، إذن أن يبادروا إلى تسويغه (إسلاميا) والجعبة مليئة وجاهزة لتقديم المبررات:

فالجارية (الأمة) مملوكة ملكية تامة لسيدها فهو إذن يستطيع بيعها، والإقراض (التسليف) أقل شأنا من البيع والذى يملك الأصل يملك الفرع، إذن يكون من حقه إقراضها للغير، ولما كان من حق المقترض الانتفاع بالشىء المقترض بكافة أوجه الانتفاع إذن يغدو من حقه أن ينتفع بالجارية بطريق وطئها!!!

ولكن ما الحكم إذا ثارت الجارية / الأمة على هذا الامتهان لكرامتها وبشريتها وهربت من سيدها ؟

فى هذه الحالة تدخل فى نطاق (الإباق):

(عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"أيما عبد أبق" فقد برئت منه الذمة -" وفى رواية أخرى : لم تقبل له صلاة وفى رواية ثالثة: فقد كفر) أورده النووى فى الرياض.

وبعد: فإذا كان أئمة أكابر مثل الثورى والمزنى والطبرى لم يستطيعوا أن يفلتوا من حكم الواقع وهم يفتون فمعنى ذلك أن الواقع له نفوذه الذى لاينكر على (الفقه) وبالتالى فإن كل واقع / عصر له فقهه وترتيبا على ذلك فإن استدعاء (فقه) مضت عليه عشرة قرون أو أكثر ليطبق على أناس هم على مشارف القرن الحادى والعشرين الميلادى هو ضرب من العبث وتكليف بمستحيل.

١٠٠ ألف حاج .. لماذا؟

فى رأيى أن مصر، تمر بظروف مشابهة لتلك التى عاشتها أوروبا الغربية فى العصور الوسطى العالية:-

غلبة الأمية والجهالة ، الزيادة السكانية التى لاتتناسب والموارد المتاحة، الفساد وفى جميع المواقع ، الضوائق المالية الخانقة التى حولت الحياة بالنسبة للقاعدة الجماهيرية العريضة جحيما لا يطاق، ارتفاع نجم "حملة البضائع الدينية" وما استتبعه ذلك من احتياز أكابرهم ثروات طائلة لم يكن يحلم بها شيوخهم ، انتشار التدين العاطفى اللاعقلى والذى يتميز بالمظهرية والشكلية، محاولة الزج بالدين فى شتى الميادين حتى البعيدة عنه.. من البنوك .. إلى "زرع الأعضاء". الدعوة المحمومة لأسلمة العلوم والآداب والفنون، تضخم "المؤسسة الدينية" بمختلف فصائلها وشروعها فى فرض هيمنتها على كل مناحى الحياة (من تصريح ناظر النظار فى مجلس الشعب أن مواد قانون العلاقة الإيجارية الزراعية لاتتعارض مع الشريعة، إلى رأى الجمعية العمومية لقسمى الفتوى والتشريع بمجلس الدولة - ١٠ /٢/١٩٩٤ م بإلزاميه رقابة المعهد الدينى "الأزهر" للمصنفات المرئية / المسموعة). ركوب عدد من العلمانيين السابقين الموجة الدينية الضحلة . والمئات من أعضاء هيئات التدريس بالجامعات خاصة فى الكليات العلمية وغالبية أعضاء «الجمعية الفلسفية المصرية!!!»، الانشغال بالمعارف الغيبية مثل: عذاب القبر، أحوال البرزخ، الصراط والميزان، أوصاف يوم القيامة، أهوال

الجحيم ، أشراط الساعة، علامات ظهور المسيخ الدجال، ميعاد خروج دابة من الأرض تكلم الناس.. إلخ، تفشى الخرافات والماورائيات مثل :التداوى بالنصوص المباركة حتى للأمراض المستعصية، رؤية الجن، والتزواج معهم، ظهور كائنات مقدسة على أسوار المعابد وانتظار المواطنين لها أياما طوالا لتتجلى عليهم وتمنحهم سلاما ونعمة ، رد الانتصارات فى المعارك الحربية إلى قوى غير منظورة تستجيب لمن يناديها بمجرد ترديد هتافات معينة، اعتبار الفنون فى حد ذاتها لا لأنها راقية أو هابطة: أرجاسا شيطانية يجب ملاحقتها بكل السبل للقضاء عليها (رفع مصطفى الشكعة وهو دكتور فى الإنسانيات وعميد سابق لإحدى كليات الآداب دعوى لمنع فوازير رمضان، (توبة) عدد من أجمل وألمع الممثلات والمغنيات والراقصات والتزامهن ارتداء "اللباس الشرعى/ الحجاب". إنما ليس من الضرورى رد الأموال الطائلة التى تحصلن عليها أيام ممارستهن لـ "فنون الحرام" ، فالمطلوب هو المظهر فحسب ، ازدياد متانة الحلف غير المقدس بين الطاغوت الحاكم والمؤسسة الدينية وتسويغها لكافة أفعاله وتبريرها أو عدم انتقادها لأى تصرف يصدر منه كأنما هو معصوم مثل الرسول عليه الصلاة والسلام، بل إن نفراً من أصحاب محمد كان يصارحه بما يعن له من ملاحظات مثل واقعه تأبير النخل ومكان المقاتلين فى غزوة بدر، وفى مقابل ذلك يغدق الطاغوت الحاكم على المؤسسة الدينية الجوائز السنية والرواتب والسفريات.. إلخ، حتى غدا المتنفذون فيها من الأثرياء الأماثل.

* * *

وفى كل عام يخرج مالايقل عن ١٠٠ ألف لأداء الحج ومثلهم للقيام بالعمرة، ومتوسط تكاليف رحلة الواحد منهم خمسة آلاف جنيه (كحد أدنى)، أى أن مصر المديونة تخرج من ماليتها العليلة عشرة مليارات من الجنيهات (سنويا) وهو ما يوازى ربع ديونها العالمية.

والوفاء بهذين الطقسين يحقق أهدافا متنوعة لمختلف الطوائف التى تؤديها، فهناك - بينهم - نسبة واضحة من تجار الصنف (المخدرات) ومستوردى البضائع المغشوشة واللصوص والنشالين والقوادين والشواذ ومؤجرى الشقق المفروشة وأصحاب الملاهى الليلية وبائعى الخمور والمرابين ومستحلى عرق العاملين لديهم والفاسدين.. إلخ. هؤلاء يجدون فى القيام بهما - وخاصة الحج - طريقة مضمونة للحصول على وثيقة غفران للذنوب والموبقات التى كانوا يرتكبونها باعتبار أنهم يعودون بعدها كما ولدتهم أمهاتهم. وهناك من يحقق بحيازة لقب "الحاج" تشريفا ومكانة بين أهل وطنه، كان يفتقدهما ويتحرق شوقا إليهما. ومنهم من يعثر فى اللقب على بديل عن لقب آخر أخفق (فشل) فى الحصول عليه المحامى، الدكتور، المهندس، اللواء، الأستاذ (المدرس) إلخ.. ونظرا لرنينه الدينى فإن له الغلبة والتفوق.

أما المأزومون والمُحبطون والمهمشون فعندما يمسكون (شباك النبى) عليه الصلاة والسلام ويجلسون ويمشون فى الأماكن والطرق التى سار فيها هو وصحابته رضى الله عنهم، يشعرون أنهم فكوا عن نفوسهم أزماتهم وإحباطهم وهامشيتهم ويعودون والسعادة تملأ أعطافهم.

ولكن الأمر ذا الدلالة البالغة أن الإحصائيات تقطع بأن ٦٠٪ من الحجاج

هم من الأميين أصحاب الدخول المحدودة وقد تبدو للوهلة الأولى أنها مفارقة!

ولكن هؤلاء المضيق عليهم في الرزق والمعدومي التعليم يذهبون إلى الأراضي المقدسة ليرجعوا وبأيديهم شهادة ضمان مؤكدة بدخول الجنة حيث النعيم المقيم ومالا عين رأت ولاخطر على قلب بشر من اللذائذ والشهوات والأفراح، وبالتالي فلا قيمة للمتاعب التي تحاصرهم في حياتهم الدنيا الفانية إذ أنها مهما بلغت فإن دقيقة واحدة في الفردوس تمحوها محوا.

* * *

وعلى حين يزداد عدد الحجاج والعمار طرديا مع تفاقم الأزمات وانتشار الأمية وشدة النوازل، فإن الاستنارة تسير عكسيا، فكلما ضاقت مساحتها دل ذلك على أن التدين المغلوط قد تعملق وشرع في إحكام السيطرة على كافة الأصعدة حتى يغلق منافذ الهواء الطلق على العقل والفكر. وعندها تشعر القاعدة الجماهيرية العريضة أنها كانت مقودة في طريق مسدود ساعتها فحسب سوف تلتفت صوب دعاة التنوير أولئك الذين كانت تلعنهم وترميهم بأشنع التهم وتهدد حرياتهم وحياتهم وتحاربهم في معايشهم بإيحاء ممن كانوا يوجهونها ويزينون لها الظلام، في تلك اللحظة الفارقة سوف تستجيب لنداء التنوير وتسلك النهج الصحيح الكفيل وحده بانتشالها من الوهدة التي تردت فيها والتي جعلتها تبحث عن الخلاص في الغيبيات والماورائيات.

الغداء فى الميريديان..
والعشاء فى ميناهاوس

فى عدد الأهرام الصادر يوم ١٩٩٤/٤/٢٨ م خبران عن مفتى عموم الديار المصرية، ملخص الأول أنه تغدى فى الميريديان ضيفاً على (جمعية رجال الأعمال المصرية/ الفرنسية)، موجز الآخر أنه عقد قران مدرس بإحدى كليات الطب حفيد وزير أسبق وحضر الحفل فى ميناهاوس نخبة من نجوم المجتمع!!!

وسلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم لهم رأى شديد الصرامة فى (رجل الدين) الذى يغشى مجالس الكبراء والأغنياء ويتناول مآكلهم اللذيذة الشهية الدسمة ، نكف عن تسطيره لأننا فى جميع ما نكتب لانهدف التجريح ونرجح أن المفتى يعرف ذلك الرأى.

وهذا المسلك من جانب مفتى المسلمين يقدم إحدى الإجابات البليغة على السؤال الذى حير المصريين عامتهم وخاصتهم: لماذا أخفق (رؤساء شئون التقديس) فى التصدى لفكر جماعات العنف؟ ولماذا سحب (رجال الدين الشعبويون والمهيجون الدينيون) من أمثال عمر عبد الكافى ووجدى غنيم البساط من تحت أرجلهم المباركة؟ ولماذا نال هؤلاء جماهيرية كاسحة وأصبح (دراويشهم) يعدون بعشرات الآلاف؟؟؟

لو أن شيخ الأزهر ومفتى أهل السنة والجماعة غادرا مكاتبهما المبطنة بالرخام الإيطالى المستورد ، والوثيرة الفرش، والمكيفة الهواء وتركا

سيارتيهما الفاخرتين واختلطا بالقاعدة الشعبية العريضة المحشورة فى "العشش والأكشاك وخيام الإيواء وأحواش المقابر ومساكن الشرك والبيوت الريفية الطينية أو المطينة، واطلعا على أحوالها التى لا تليق بالحيوانات، ولمسا بأيديهما المبجلة مدى حاجاتها الماسة إلى أبسط المرافق والخدمات وجهلها بأبسط قواعد الدين (وهو أمر يهمهما على وجه الخصوص) وتفشى الأمراض فيها والآفات الاجتماعية والخلقية.. لاستطاعا أن ينتجا خطاباً دينياً يلقى القبول ، ولرفعا إلى ولى الأمر مذكرات بما رأيا وسمعا وشما ، وحتى إذا لم يستجب لهما فقد أبرآ ذمتيهما أمام الله جل شأنه.

إن شيخ الأزهر والمفتى لو أقدما على ذلك لساهما فى تغيير الخريطة الاجتماعية لوطننا بدرجة كبيرة لأننا لانعتقد أن شهادتيهما كانت ستذهب أدراج الرياح لدى صانعى القرار.

لو قاما بذلك لأيقن من عنده ذرة من شك أن الدين من الممكن أن يغدو دافعاً قوياً لتبديل أحوال المستضعفين إلى الأفضل.

* * *

وهنا قد يعترض متحذلق - وما أكثرهم - ويصبح منفعلا أو ينفعل صائحاً: من أنبأك أن هذا من مهام الشيخ والمفتى؟

ونرد عليه باثنتين:

الأولى: أن من أهم وظائف (رجل الدين) هو رفع حوائج المحكومين للحاكم وحثه على قضائها وتوعيته أن هذه هى مسئوليته الرئيسية وهو ما التزم به سلفنا الصالح طيب الله ثراهم، ولضيق الحيز المتاح نكتفى بمثل واحد من سيرة سفيان الثورى نور الله ضريحه:

لما حج الخليفة العباسى "المهدى" عام ١٦٠ هـ دخل عليه الثورى فقال له الخليفة: يا عبد الله ما حاجتك؟ فرد عليه الثورى: وأى حاجة تكون إليك وأولاد المهاجرين والأنصار يموتون خلف بابك؟ فقال المهدى: يا أبا عبد الله أفرأيت إن لم أقدر أن أوصل إلى كل ذى حق حقه فماذا أصنع؟ فقال الثورى:

تفر بدينك وتلزم بيتك وتترك الأمر لمن يقدر أن يوصل إلى كل ذى حق حقه، فسكت المهدى.

(موسوعة فقه سفيان الثورى - ص ٢٢ - تجميع د/ محمد رواس - قلعة جى - الطبعة الأولى ١٤٤٠ هـ / ١٩٩٠ - دار النفائس / بيروت) فهنا نجد الثورى يعرض على الخليفة المظالم التى حاقت بأبناء المهاجرين والأنصار وأن عليه أن يعطيهم حقوقهم فإذا عجز عن ذلك فعليه أن يعتزل وأن يترك الأمر لمن هو أقدر منه على ذلك.

أما الأخرى فهى:

إذا لم يكن من مهام شيخ الأزهر ومفتى المسلمين ما ذكرناه آنفا فهل من وظيفتهما تناول الغداء فى فنادق الخمسة نجوم مع كبار رجال الأعمال مصريين وفرنجة، وتوثيق زواج أبناء الأثرياء وأحفاد الوزراء؟؟؟

إعادة
كتابة التاريخ الإسلامى
ضرورة .. لماذا؟

ما من مرة قرأت إسمه فى أحد كتب التراث إلا وكان متبوعا باللعن والطرد من رحمة الله، ذلكم هو:

عبد الرحمان بن ملجم المرادى.

والحق أن جرمه شنيع فقد اغتال الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وتعلل كتب التاريخ العربى الإسلامى فعلته النكراء بأنه كان من الخوارج وأنه خطب خارجية مثله قتل أبوها وعدد من خاصة أهلها فى معركة - النهروان التى نشبت بين على وبين الحرورية (الاسم الأول للخوارج) وأنها كانت من أجمل نساء عصرها (حُلوة مُلاّحة) واسمها الرباب وإسم أمها قطام وأنها أو أمها طلبتا مهرا غاليا وهو رأس على!!!

هذا كل ما كنت أعرفه عن ابن ملجم حتى وقت قريب، ولكن فى الآونة الأخيرة وأنا مقدم على محاولة (حفرية معرفية) عن دخول الإسلام مصر ومدى تقبل المصريين له وتخليهم عن ديانتهم التى كانوا يعتنقونها، والمسارات والتعرجات التى قطعها الإسلام حتى غدا دين غالبية المضريين كان من البديهى أن يأتى على رأس ركائز تلك الحفرية التنقيب عن طريقة وصول القرآن

لمصر. فإذا بى أفاجأ فى كتاب (القرآن وعلومه فى مصر - تأليف د/ عبد الله خورشيد البرى - ١٩٧٠ م - دار المعارف بالقاهرة) أن عبد الرحمان بن ملجم كان فى جيش فتح مصر وأنه وعدد لايتجاوز أصابع اليد الواحدة من التابعين ومثل عددهم من الصحابة كانوا من القراء أى حفظة القرآن - فى حين أن الجند فى جيش الفتح كانوا بضعة ألوف - وأنه كان من العباد النساك أصحاب الجباه السود (من أثر السجود) وأن الخليفة - عمر بن الخطاب - بعد ذلك - كلفه رسميا إقراء المصريين القرآن بل وأمر له بدار قريبة من المسجد الجامع ليسهل له مهمته.

(القارىء) كان منزلة علمية سامية آنذاك فما بالكم بـ شيخ القراء أو رئيسهم؟ وعبقرية عمر لايختلف عليها إثنان وقد شهد له الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى يقول فيه: (لم أر عبقرياً يفرى فريك يا عمر) وفى المعجم الوسيط فلان يفرى الفرى : إذا أجاد عمله وأتى فيه بالعجيب، وعلى ذلك فإن إقدام الخليفة الثانى على تعيين ابن ملجم شيخاً للقراء فى مصر لم يأت اعتباطا، إنما بعد أن توثق عنده أن عبد الرحمان بن ملجم جمع القرآن جمعا جيداً بعد أن قرأه على يد الصحابى المعروف معاذ بن جبل - رضى الله عنه - الذى كان له مصحف خاص به قبل توحيد المصاحف بمعرفة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو أى معاذ صاحب الحديث المشهور الذى يتخذه المنادون بالاجتهاد والقياس سندا لهم والذى أجاب فيه معاذ على سؤال للرسول عليه السلام عندما بعثه لليمن، وقبيلة مراد التى ينتسب إليها عبد الرحمن إحدى قبائل اليمن المعروفة.

* * *

إذن فما الذى حول ابن ملجم من عابد ناسك ذى جبهة سوداء من أثر السجود وأنبغ تلاميذ معاذ فى حفظ القرآن وقراءته وشيخ للقراء فى بلد جديد كمصر تحرص الخلافة على (أسلمته) ، إلى قاتل لخليفة المسلمين أول من آمن من الذكور وابن عم النبى وزوج إبنته ؟

إن السبب الذى أوردناه آنفا والذى يعلل به المؤرخون القدامى ذلك التحول الغريب ، سبب مجانى ساقوه لراحة نفوس المؤمنين سواء من أهل السنة والجماعة أو من أهل العصمة والعدالة (نعنى بهم الشيعة - هكذا يسمون أنفسهم) ، وذلك أنه فى الليلة المحتومة التى اغتيل فيها الإمام على، حاول خارجيان آخران قتل معاوية (فى دمشق) وعمرو بن العاص (فى مصر) ولكنهما أخفقا (فشلا) لأسباب لامجال لذكرها ، والثلاثة المستهدفون من المؤامرة (على / معاوية/ عمرو) من قريش وكل واحد منهم كان يتولى حكم شطر وسيع من الامبراطورية الإسلامية الثمرة الناضجة الشهية للفتوحات التى تمت بسيوف العديد من القبائل، فلما قضى الأمر لم تنل من الغنائم إلا الفتات واستأثرت قريش بنصيب الأسد من كل شىء:

الخلافة العظمى والولايات والعمالات والأموال والدور والضياع والجوارى من كل لون (توفى على بن أبى طالب عن أربعة عشر سرية ولما وصلت الخلافة إلى المتوكل العباسى بلغ عددهن إلى أربعة آلاف!!) .. فكان من الطبيعى أن يخرج (= يثور) أبناء القبائل التى همشت وحرمت من حقوقها رغم أنها هى

التى قامت بكل العبء، وأن يخططوا لاغتيال رموز حكامهم الأكابر من القرشيين.

هذا مثل نقدمه دليلا على صدق الدعوة التى ننادى بها وهى ضرورة إعادة كتابة التاريخ العربى الإسلامى كتابة علمية موضوعية تتناول بالدرس والتمحيص كافة - العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الداخلية والخارجية، والقبلية والعرقية والبيئية والمعرفية والثقافية.

الحوار مع من..
ولأى هدف؟

عندما كان الشيخ جاد الحق رئيس المعهد الدينى المشهور إعلاميا بـ (الأزهر) يعالج على أيدى الفرنجة وعلى أرضهم (دار الحرب) ويطرقهم العلمانية، زاره الكاردينال فرانز كوينج، عضو المجلس الأعلى للكرادلة بالفاتيكان، عند قراءتى الخبر انزعجتُ لإن المذكور هو الرئيس الروحى لما يسمى بـ (الجمعية الدولية للحوار الإسلامى - المسيحى) وتساءلت كيف تفاهم كبيرا شئون التقديس، وماذا دار بينهما وعلام اتفقا أو اختلفا؟ ولم تشف غليلى العبارات المقتضبة التى واكبت الخبر البالغ الخطورة.

وانتظرت ظهور العدد التالى لمجلة الأزهر المحرم ١٤١٥ هـ/ يونيو ١٩٩٤ اذ بها باب ثابت مخصص لأخبار الشيخ جاد ، وصح توقعى فقد جاء به أن الكاردينال فرانزكوينج عندما زاره نقل إليه تحيات الكنيسة الكاثوليكية وسلمه وثيقة بها أفكاره التى سيطرحها على الساحة الأوروبية والنصرانية (هكذا) بغية التعاون بين المؤسسات الدينية الرسمية الإسلامية والنصرانية

(هكذا أيضاً) لخدمة السلام ورفاهية الشعوب ، ولكن مجلة الأزهر لم تنشر نص الوثيقة ولا الأفكار التى تضمنتها وكان من الواجب عليها أن تفعل لأن من حق المواطن المصرى أن يطلع عليها وألا يترك مثل هذا الأمر الذى يمس حاضر الوطن ومستقبله لحفنة من ذوى العمم البيضاء والسوداء..

وتعجبت: أى سلام بعنيه الكاردينال وهو قبل غيره يعلم أن الحروب الدينية طحنت من البشر أضعاف من سقطوا صرعى فى غيرها من الحروب وفى أى إصحاح أو آية حضت المسيحية أو الإسلامْ على الرفاهية ، وهل عاش محمد وعيسى عليهما أفضل الصلاة وأتم السلام - وهما الأسوة الحسنة لمن آمن برسالتيهما - هل عاشا مرفهين أو حتى قريبا من الرفاهية أم العكس هو الصحيح تماما؟؟؟

وعلى كل فلم تقنعنى تلك العبارات الإنشائية المسطورة بـ مجلة الأزهر واستبعدت أن تجيىء وثيقة الكاردينال فرانز بهذه السذاجة واستمر الفأر يلعب فى عبى (فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية (= العب: الكم والجمع أعباب). وظللت واضعا يدّى الاثنتين على قلبى لأن اجتماع كبير الوعظة مع نظيره المفصلة (الترجمة الحرفية لكلمة كاردينال) يدعو كل مهموم بشئون وطنه إلى القلق والاضطراب.

* * *

حتى كان يوم ٩-٦-١٩٩٤م إذ نشرت الأهرام رسالة مندوبها فى باريس كشفت المستور فقد عقدت "الجمعية الدولية للحوار الإسلامى المسيحى" مؤتمرا بقاعة بالسوربون تحت رعاية الكاردينال كوينج لينال المشاركون بركاته

ونفحاته القدسانية وردّ الشيخ جاد التحية بمثلها فأرسل أحد بطانته (في المعجم الكبير لمجمع اللغة العربية = فلان بطانة لفلان أي مداخل له ومن خاصته ووليجته وصاحب سره الذي يشاوره) ممثلا للمعهد القديم، والجمعية المذكورة إحدى عصابات (في مختار الصحاح للرازي = العصابة: الجماعة من الناس والخيل والطير وفي حديث النبي يوم بدر: إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ابداً) - الاسترزاق المنتشرة في أوروبا وأمريكا بمسميات ما أنزل الله بها من سلطان وكلها تستثمر الأديان، والدين أي دين فور أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى الرسول الثائر الذي فجره - يتحول إلى "سبوبة" يبادر الشطار (الشاطر هو الفَهِم المتصرف) إلى التكسب به (= بالدين) كل على طريقته الخاصة.

وقد بدأ الاتجار بالإسلام مبكرا في سقيفه بني ساعدة، بعدها أخذت هيئات المنتفعين به تتوالى الواحدة إثر الأخرى طوال الأربعة عشر قرنا تحت عناوين مختلفة.

خلافة، إمامة عظمى وزارة، نحلة، طائفة، مذهب، فرقة، طريقة، جماعة، جمعية، ندوة، مؤتمر، ورشة عمل أو "ويرك شوب"... إلخ، وقد وصف أولئك الأذكياء البهاليل قديما بـ "أهل السنة والجماعة" أو "أهل العصمة والعدالة وهم الشيعة" أو "الحرورية" وهم الخوارج.. أما الآن فيطلق عليهم: "المتطرفون" مرة و"المعتدلون" أخرى و«المستنيرون» ثالثة وهم بلا استثناء حسبما ذكر البوصيري في البردة:

وكلهم من رسول الله ملتمس

غرفا من البحر أو رشفا من الديم

ولم يعد الرشف يكفى فى هذه الأيام بل الغرف والعب والتضلع (تضلع إمتلأ شبعا وريا أى ملأضلوعه)

* * *

إن من البديهى أن يجرى الحوار بين متعارفين لا بين متناكرين ولا بين منكر ومعترف ، والذى أعرفه ويعرفه الناس معى أن الأعتراف بين الديانتين الإبراهيميتين اللتين تبغيان المحاورة أحادى الجانب بمعنى أن أحداهما تنكر الأخرى ولا تعترف بها ولاتفرض لها وجودا ولا أزيد على ذلك نظرا للحساسية "المفرطة لهذه النقطة خاصة فى الوقت الحاضر وحتى لا أغضب الأحباب فى اللجنة المصرية للوحدة الوطنية التى ترفع شعارا هلاميا (الدين لله والوطن للجميع) وكثيرا ما نبهنا المتنفذين فيها إلى زلاقته وإلى ضرورة تغييره.

كيف يجرى حوار بين شاهد وغائب معنويا وبين حاضر ومنفى أدبياً؟

والأهم : فيم يجرى الحوار ولأى هدف؟

إن أخشى ما أخشاه إنه بعد انزواء بعبع الشيوعية (بعبع الماء = صوت حين يخرج من إنائه متتابعا) الذى طالما ارتعدت منه فرائص السدنة والدهاقنة فى العقيدتين الساميتين، أن يعقدوا الخناصر ويتعاهدوا على التصدى لرياح حريات الفكر والرأى والإبداع، التى بدأت تهب بقوة وثبات وأن يحاولوا مرة أخرى كما فعلوا فى القرون الوسطى أن يحبسوها داخل (سور الدين العظيم)... ربنا يستر..

حلقة جديدة
فى مسلسل مصادرة الكتب

موقفى معروف من الدروشة والانجذاب والتجليات والعرفان والغنوصية والتوسمات والتوهمات إلى آخر هذه المنظومة من المفاهيم اللاعقلانية لإننى مع أبى العلاء المعرى أنه لا دليل ولا حاكم إلا العقل فى الصبح والمساء.

ولكننى وبذات الدرجة ضد مصادرة الكتب لأنها دليل على العجز عن الرد والتفنيد ، وتفصمنا عن العصر الذى نعيشه وتنقلنا إلى القرون الوسطى وهيمنة محاكم التفتيش على الفكر وعلى ضمائر الناس.

والدين الذى يهزه كتاب أو رواية أو قصة قصيرة أو طويلة أو مسرحية أو قصيدة.. لايستحق أن يسمى دينا ، والإسلام فى تاريخه الطويل تعرض لمئات الكتب التى ناقضته وبشتى لغات الأرض ومع ذلك ظل كما هو.

أكتب هذا بمناسبة صدور قرار المجلس الأعلى للطرق الصوفية فى ١٩ من المحرم ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤/٦/٢٨ بمصادرة كتاب (شراب الوصل) للشيخ إبراهيم محمد عثمان عبده البرهانى وماتلاه من غلاسة (فى مختار الصحاح للرازى: الغلس ظلمة آخر الليل) مثل حظر أى نشاط للمؤلف ولأتباعه ولجماعته.

والمجلس المبارك مصدر القرار - بداية - هو من حفريات عصور الانكسار والهزيمة والانحسار والتراجع وعندما يرتفع وعى المواطنين وتمحى

أميتهم سيحال هذا المجلس وأضرابه إلى متحف التاريخ الإسلامي. وأول أسانيد قرار المصادرة خطاب من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من الإدارة العامة للتأليف والبحوث والنشر - وما يؤسف له أن جمهرة المثقفين في مصر والعالم العربي في غفلة عن الدور الخطير الذي يلعبه المجمع المذكور فما من كتاب صودر في العقدين الأخيرين إلا ومن ورائه أصابع هذا المجمع العتيق، وثانيهما تقرير كتبه أحد الأزهريين، تفرنج مؤخراً فخلع العمة والكاكولة واستعاض عنهما بـ البذلة الكاروهات والكارفته الجنجاة، وتخصصه في (الحديث) ولا علاقة له بـ (التصوف) والمسافة بين الحديث والتصوف أطول مما بين الصين والأندلس، فالتصوف يقوم على الذوق والوجدان والقبض والبسط والشهود والحلول والاتحاد.. وله معجمه الفريد ومصطلحه المتميز أما المعارف الحديثية (نسبة إلى الحديث) فقد تجمدت - منذ قرون - على نفسها وانغلقت على ذاتها وغدت تقتات على التقليد والتكرار والاجترار والحفظ والتلقين، والعداء بين المتصوفة وأصحاب الحديث يعرفه من له أدنى إلمام بتاريخ الفكر الإسلامي، وإسناد كتابة التقرير إلى ذلك المتفرنج الأزهري أو الأزهري المتفرنج المتخصص في الحديث جعل النتيجة معروفة سلفا ، وخاصة وأن، صاحبنا محصوله من المعارف الحديثية ضامر وخزينه منها هزيل وبضاعته منها عجفاء، وطريقته في عرضها والقائها تقيم بينه وبين المتلقي سدا من الانفصام والتباعد والصد والقطيعة تحثه على أن يهرول باحثا عن محطة أخرى - أن استمع إليه عبر المذياع - أو يهرع إلى تبديل القناة إذا شاهده في التلفاز.

ودوافع المجلس الأعلى للطرق الصوفية الميمون - الكامنة وراء قرار

المصادرة - لا تخفى على أحد، فتعداد جماعة صاحب كتاب "شراب الوصل" يبلغ أربعة ملايين عضو حسبما ذكرته مجلة قومية أسبوعية ، في حين أن الطرق الأخرى لا يصل عدد المريدين في كل منها بضع مئات ، كما إن المجلس المبجل يتنزلف بهذا القرار إلى السلطة السياسية لأن صاحب الكتاب سوداني.

وإذا كان هذا هو مسلك الزهاد الذين من المفترض فيهم أن تقوم حياتهم على التجرد والتقشف والفقر والفرار من الدنيا فلماذا نلوم غيرهم الذين لايرفعون مثل هذه الشعارات ولايلبسون مثل هذه الشارات.

وبعد: فأن من حسن حظ الشيخ إبراهيم مبدع "شراب الوصل" أن مصر لايطبق بها دستور لا هوتى أو شريعة ثيولوجية إنما تحكمها قوانين مدنية ووقعت على الميثاق العالمى لحقوق الإنسان وإلا كان مصيره على أيدى المجلس الأعلى للطرق الصوفية ومجمع البحوث الإسلامية - المقدسين - كمصير: الحلاج والسهروردى المقتول.

إلى دراويش التقدمية
النائمين فى العسل

المؤتمر الدولى الثالث للسكان والتنمية الذى انعقد بالقاهرة فى الشهر الماضى كشف لنا أمورا كانت خافية علينا بشأن التعاون بين سدنة الديانتين الساميتين : المسيحية والإسلام.

فقد تبين أن الفاتيكان عقد فى يونيو ١٩٩٤ ندوة دعا إليها رابطة العالم الإسلامى (مكة) والمؤتمر الإسلامى (كراتشى) لتوحيد المواقف حول وثيقة المؤتمر، وقبيل انعقاده أذاع بيانا هاجم فيه الوثيقة بضراوة، واجتمع المجلس التأسيسى لرابطة العالم الإسلامى برئاسة الشيخ عبد العزيز بن باز . وهو فى ذات الوقت (مفتى السعودية) لدراسة ما يمكن عمله بشأن ما تضمنته الوثيقة من توصيات تتنافى وأحكام الشريعة الإسلامية، وأصدرت هيئة كبار العلماء فى المملكة بيانا دعت فيه إلي مقاطعة المؤتمر وفى القاهرة انعقد مجمع البحوث الإسلامية برئاسة الشيخ جاد الحق وخرج على العالم ببيان أكد فيه أن المؤتمر تبنى نقيض ما شرع الإسلام لمقومات الأسرة وأنه يحمى العلاقات الجنسية الشاذة ويهدم قيم الأديان (بالجمع)، كذلك نشرت هيئة أطلقت على نفسها "جبهة علماء الأزهر" ولايدرى أحد حتى الآن هل هى رسمية أو شعبية

وإلى أى قانون تستند فى تكوينها - نشرت بيانا من ستة بنود. أصلى برنامج عمل المؤتمر نارا حامية.

* * *

ليس هذا فحسب.

فقد رأينا للمرة الأولى فى المؤتمر السادس للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى انعقد فى الإسكندرية قادة الطوائف المسيحية الثلاث الكبرى: الأرثوذكسية، والكاثوليكية والبروتستانتية يشاركون فيه، وطالبوا جميعهم بمزيد من الإلتحام بين الديانتين الإبراهيميتين، بل أن أحدهم دعا الكنائس الأفريقية إلى التآخى مع مواطنيهم المسلمين كل فى دولته، والإشارة إلى الكنائس الأفريقية والإلحاح على دعوتها تلك، لم تأت اعتباطا على لسان القس المبجل لإن من له أدنى معرفة بالحركة المسيحية المعاصرة (وهذا ما ألفت نظر الرفاق والتقدميين إليه) يعرف أن الكنائس الأفريقية لها ثيولوجيا خاصة ومتفردة ومستقلة عن ثيولوجيا الفاتيكان ومن ثم يطلق عليها "الكنائس الأفريقية المستقلة" أى أن الحبر المهيب يحض هذه الكنائس على الدخول فى لعبة التضامن هذه بغض النظر عن موقفها المسبق من الفاتيكان.

والذى دعا رؤساء حملة البضائع الغيبية إلى التعاضد - رغم كل ما بينهم - هو شعورهم أن الأرض تميد من تحت أقدامهم لإن سلعهم المقدسة تتعرض لزلزالين مدمرين:

الأول: يتمثل فى ثورة العلوم التجريبية بعامة والهندسة الوراثية بخاصة بما فى ذلك: التحكم فى نوع الجنين ومواصفاته وانقسام الأجنة وتماثلها .. إلخ

وهى أمور تناقض الثبوتيات واليقينيات التى درجت الأديان الثلاثة على ترسيخها ثم الاشتغال عليها بكافة التنويعات.

الآخر: استخدام المناهج الحديثة فى العلوم الإنسانية من فللوجية وبنيوية وألسنيه وانثربولوجية وسيمائية وتزامنية وتطورية وتاريخية.. إلخ وتطبيقها على "التراثات - جمع تراث - المقدسة"، بحسبانها نصوصا كغيرها من النصوص مما يكشف حقيقتها ويثبت أسطوريتها وبالتالى ينزع عنها هيبتها ويخلع عنها سطوتها ويفقدها سيطرتها على المخاطبين بها بالإضافة إلى تاكيد سيادة العقل وأنه المصدر الوحيد لأى معرفة واستقلاله عن أى هيمنة أخرى.

* * *

هذا التقارب والتعاضد بين حراس العقيدتين هو الذى لفتنا النظر إليه فى عدد أغسطس ٩٤ من هذه المجلة المناضلة (اليسار) أوضحنا مدى خطورته على المجتمع المدنى، ولكن يبدو أن المثقفين وخاصة دراويش التقدمية يأخذون مقالاتنا مأخذ التسالى "قزقزة اللب" ويتفرجون على هذه الأحداث البالغة الأهمية كأنما هى تجرى فى مجرة أخرى، وماداموا سادرين فى غفلتهم فعما قريب سيجرهم حملة السلع الماورائية من أنوفهم وسيجدون أنفسهم فى حلقات الذكر يتطوحون يميناً وشمالاً ولعابهم يسيل على ذقونهم المستنيرة (هذا بالنسبة للمسلمين منهم)، أو يشاركون فى تقديم القربان وباقى الخدمات المبروكة فى الكنائس (إن كانوا مسيحيين).

وساعتها لا ينفع الندم

التداوى بـ "النصوص المقدسة" من مس الشيطان وكل الأمراض ... جذوره وبداياته الأولى

لمعرفة ظاهرة اجتماعية يتعين علينا التنقيب عن جذورها "العميقة" وفى الآونة الأخيرة انتشرت ظاهرة مس الشيطان أى ركوبه الأدميين والتداوى منه ومن سائر الأمراض حتى العضوية بـ "النصوص المقدسة"، ومساهمة منا فى تشخيص هذه الظاهرة نقول وبالله وحده التوفيق:

يؤكد علماء الانثروبولوجيا أن السحر والدين كانا ممتزجين ، وفى كثير من القبائل البدائية في أفريقيا وآسيا واستراليا تتوحد وظيفة الكاهن والساحر فى شخص، ثم تطور الدين والسحر وسار كل فى طريقه وانفرد بـ طقوس وشعائر خاصة به، ويرى جيمس فريزر فى "الغصن الذهبى": أن الاختلاط بين السحر والدين مازال حيا وشغالا ولم يخبُ للآن حتى بين شعوب بلغت مستوى متميزا من الحضارة » وفى معاجم اللغة العربية، السحر هو : كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع.

عند ظهور الإسلام كان السحر معروفا لدى عرب الحجاز وقبائل جزيرة العرب ومتمكنا فيهم مثل باقى المعتقدات التى سنذكرها بعد قليل، فهى

كانت منغرسة فى نفوسهم وغائرة فى أعماق شعورهم ولاشعورهم، وكان هناك من يزاول السحر كوظيفة معترف بها وكان أقرب ما يكون شبها بالطبيب، وذلك أن الطب والسحر كانا عندهم سواء، وفى مقدمة الأعمال التى كان يؤديها الساحر إخراج الجن من الممسوسين ومداواة المرضى عموما ، ويتم ذلك عن طريق تلاوة بعض الكلمات (تسمى اصطلاحا التميمة)، ثم يخاطب الجن المتلبس بجسم المريض ويستعين أثناء ذلك بحرق خليط من البخور والملح، وقد يقوم بذلك العراف أو الكاهن وفى قصيدة لـ عروة بن حزام:

فقلت لعراف اليمامة داونى: فإنك إن أبرأتنى لَطبيبُ

ولكن يمتاز العراف / الكاهن على الطبيب/ الساحر بإنه يتنبأ بالغيب ويعرف المستور ، ومما يؤكد أن للسحر حضوراً كثيفا فى البيئة العربية سواء فى الحجاز أو خارجه عند بدء الدعوة الإسلامية أن كلمة سحر ومشتقاتها مثل سحرة وساحرون وساحران ومسحور .. إلخ وردت فى القرآن أكثر من ستين مرة (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) لمحمد فؤاد عبد الباقى - طبعة دار الشعب.

أما الجن فقد افترش مساحة واسعة للغاية من معتقداتهم ودليلنا أن القرآن ذكر الشيطان ٨٨ مرة وابليس ١١ مرة ، وجن ٥٠ مرة، وعفريت مرة واحدة ومارد كذلك ، ومريد مرتين ، فيصير المجموع ١٥٣ مرة (المرجع السابق) . هذا بخلاف اعتقادهم بوجود كائنات أو مخلوقات "متشيطنة" منها الغول وقد أخبرنا الإمام "القزوينى" فى "عجائب المخلوقات" أن نفراً من الصحابة رأوا الغول منهم عمر بن الخطاب، ومنها السعلاة والدلهاب والمذهب والغدار والشق وهو الذى قتل علقمة بن صفوان بن أمية.

ومن معتقداتهم أن لإبليس خمسة أولاد لكل عمالته (اختصاصه):

ثبر (المصائب)، الأعور (الزنا) ومسوط (الكذب)، داسم (البغضاء)، وزلنبور (الخصومة)، وأن الجنة تعتلي ظهور الخيل وتتزوج من الإنس وتتلون بما تشاء من ألوان وتركب ما تريد من حيوانات وزواحف تسمى "مطايا الجن" وتقابل الإنس سواء بصورتها الأصلية أم المتشكلة وتحدثهم ويحدثونها وممن لقيتهم الصحابى عبد الله البجلى وكان شاعرا مفلقا فأسمعهم شعره فطربوا له فعلموه دواء لم يعرفه قبل إنسان ولما وفد على النبى (ص) حكى له القصة فأمره أن يخبر بها إخوانه الصحابة ففعل (القزوينى فى العجائب). والجن قبائل وعشائر ولهم زعماء وسادة وقادة وفيهم شعراء وخطباء، وهم درجات منهم: العفريت، والمارد، والمريد، وهذه أسماء وردت فى القرآن، ولكن أفرسهم (العبقرى) ولهم واد يسمى (عبقر) وهم غالبا ما يلهمون الشعراء الأفذاذ.

* * *

وكان عرب الحجاز وكافة أنحاء شبه الجزيرة يعتقدون فى الحسد والإصابة بالعين ويتخذون لها "الرقى" جمع "رقية" وطلبها يسمى "الاسترقاء" والعمل يسمى "الرقى" بفتح الراء والذى يزاوله يسمى الراقى وقد يكون رجلا أو أمرأة، وتستعمل الرقية فى شفاء اللديغ (من أفعى أو عقرب) والمعيون أى الذى أصابته عين والمحسود، والرقية هى عبارات يتلوها الراقى على موضع العلة فيبرأ صاحبها فيستحق الراقى على ذلك (جُعالة أى أجراً)، وفى هذا يقول بشر الأسدى:

ومسعود وأرقم لم أضعه وإذ أرقيهما رقى السليم

والسليم هو الملدوغ يقال ذلك من باب التفاؤل.

وبعد

فهذا موجز سريع للغاية لجذور الظاهرة التى طفقت تشيع هذه الأيام ولعل القارىء الحصيف عندما يطلع عليه ، يعرف منشأها ومصدرها.

ويدرك من ناحية أخرى أن الذين يستبشعونها ويستنكرونها من رجال الدين إما أنهم يمخرقون أو أنهم يغالطون أنفسهم وضمائرهم، وأجدر بهم أن يسلموا أن تلك المعتقدات ليست دخيلة على الإسلام ولا غريبة عنه وأنها انتقلت إليه - مثل الكثير غيرها من المعتقدات والأنظمة - من المجتمع الذى واكب ظهوره والبيئة التى انبثق فيها ، وأن يصرحوا أن تلك المعتقدات كانت متوافقة مع بيئة معينة ولمجتمع له أنساقه الفكرية وأفقه المعرفى ودرجته الحضارية ، ولكنها الآن لم تعد ملائمة لمجتمعنا الذى يطل على مشارف القرن الحادى والعشرين وليس فى ذلك حرج لإن هناك العديد من المعتقدات والشعائر والأنظمة التى جاءت بها نصوص صريحة آمرة قطعية الورود والدلالة ومع ذلك تجاوزتها الظروف الراهنة مثل:

الرق، تقسيم الغنائم على المحاربين، الصفى الذى يأخذه الرئيس أو الزعيم ، صلاة الخوف، صلاة الكسوف ، صلاة الخسوف، العتق، الولاء... إلخ.

أى أن محاربة الظاهرة لاتكون عن طريق إنكار مصادرها أو التشكيك فيها إنما يتم بالكشف عن تاريخيتها وبالتالى عدم صلاحيتها وفقدان ملاءمتها للوقت الحالى.

جامعة قنا..
وندوتها الموسعة:
الإعجاز العلمى فى القرآن

الصعيد الجوانى مضروب فى التنمية بكل صورها، لإهمال حكومة الحزب الوطنى له، ولذا فهو مثال فريد فى التخلف من كل ناحية، ولايتصور أحد مداه (التخلف) إلا إذا رآه بعينيه.

والجامعة - أى جامعة - من مهامها الرئيسية أن تعمل جاهدة على المساهمة فى تنمية إقليمها بتقديم الدراسات والبحوث والاحصائيات.. إلى المحافظة وبحضها على تنفيذها وبدفع طالباتها وطلبتها إلى خدمة مجتمعهم والأخذ بيد مواطنيهم التعساء وانتشالهم مما هم فيه من أمية وجهالة وفقر ومرض.. إلخ.

ولكن جامعة قنا بدلاً من ذلك أقامت هذا العام ندوتها الموسعة عن الإعجاز العلمى فى القرآن (الأهرام ٢٧/ ١٠/ ١٩٩٤).

والقرآن كتاب هداية ومواعظ ورقائق وأخلاق، شأنه فى ذلك شأن كتب الديانتين الإبراهيمتيين اللتين سبقتاه تاريخياً وهذا أمر ثابت بنص القرآن.

ولم يقل أحد من السلف أنه كتاب علمى تستخلص منه النظريات العلمية، ورجال الدين الذين يحترمون عقلهم وعلمهم ودينهم ولايفرطون فى أمانتهم العلمية، ولايتاجرون بها مقابل عرض من الدنيا قليل، يرفضون هذا الإدعاء

ويشجبونه، منهم الشيخ أمين الخولى طيب الله ثراه.

والذين قرأوا تاريخ منطقة الحجاز فى الربع الأول من القرن السابع الميلادى أدركوا لأول وهلة أنها كانت ساذجة أشد ما تكون السذاجة وأن درجتها فى السلم الحضارى كانت خفيضة للغاية وأن محصول أهلها من العلوم مثل الطب والفلك وغيرهما من العلوم كانت مجرد معارف تحصلوا عليها نتيجة الإلف والعادة ولم ترق بحال إلى درجة العلوم مثل تلك التى كانت لدى الدول المجاورة مثل فارس وبيزنطة والهند.. وإن تلك البيئة من المستحيل عقلا أن تنبثق عنها نصوص تحمل نظريات علمية لإن فاقد الشىء لا يعطيه.

وهذه الدعوى العريضة - وجود نظريات علمية فى القرآن. وزايد عليها البعض وأوصلها إلى حد الإعجاز - لم يدّعها أحد من العلماء القدامى ونقصد علماء العلوم التجريبية فى الحضارة الإسلامية بداية بـ خالد بن يزيد بن معاوية ومروراً بـ:

أبى بكر الرازى وجابر بن حيان والكندى وابن سينا ونصير الدين الطوسى وابن الهيثم وشاكر بن موسى وولديه وابن أبى أصيبعة وأبى الحسن على بن رضوان المصرى وشهرته ابن رضوان الطبيب وابن النفيس.. لم يذكر أحد منهم أن النظرية التى اكتشفها كانت كامنة فى القرآن وأن دوره انحصر فى استنباطها منه.

ونحن نحاج المنتدين فى جامعة قنا ومن على شاكلتهم ممن يتبنون هذا الادعاء بالقرآن نفسه "قل هاتوا برهانكم" - بمعنى أنكم إن كنتم صادقين فى دعواكم هذه فأطلعوا علينا بنظرية علمية جديدة استخرجوها من القرآن واعرضوها على الدوائر العلمية - محلية ودولية - هذا هو المحك أو دليل

الثبوت على صدق دعواكم:

أما أولئك الذين كلما سمعوا عن نظرية علمية ابتدعتها (الفرنجة) صاحوا هذه موجودة فى القرآن ولجأوا إلى آية نسبوها إليها، كمقولة أن القرآن سبق العلم الحديث فى اكتشاف مرض الايدز وذلك فى الآيات الخاصة ب (عمل آل لوط)، فهذا مسلك لايليق بالقرآن نفسه ولا بمن ينتسبون إليه. أما عندما ينساق إلى ذلك أساتذة الجامعة ويقيمون له ندوة موسعة فإن الخطب أفدح والطامة أكبر وقل على جامعات مصر السلام.

والسؤال الذى يجابه القائلين بسبق القرآن العلم الحديث فى اكتشاف الأيدز هو لماذا لم ينص على دوائه وهناك الملايين ممن يعانون منه؟

ولمعتنقى هذه الدعوى؟:

لماذا يجىء القول بوجود النظرية فى القرآن دائماً وفى كل الأحوال بعد ظهور النظرية، وبعبارة أوضح: لماذا لم يكتشف حتى الآن أحد علماء المسلمين نظرية علمية جديدة من القرآن؟

ولماذا يقتصر إبداع النظريات العلمية الحديثة فى أغلب الأحوال على الفرنجة الذين لم يقرأوا حرفاً واحداً من القرآن؟

* * *

وبعد

فإننى أهمس فى أذن جامعة قنا الموقرة أن ندوة تقدم فيها دراسات للنهوض بالمحافظة فى سائر الميادين والمجالات أقرب إلى الله تعالى، وأنفع للوطن، واتركى هذه الدعوة الفطيرة لغيرك ليمخرق بها على البسطاء فى خطبه المنبرية ومواعظه التليفزيونية.

الفصل الثانى

مـن
«الأهالى» و «أدب ونقد»

الشورى ليست هى الديمقراطية

انتشرت نظرة عجلى (= متسرعة) تدعى أن الشورى هى الديمقراطية، وطفقت تتحول إلى نظرية عن طريق إعادة إنتاجها بتنويعات مختلفة، هى فى نظرهم نظام ذو أصول إلهية وجذور سماوية - مع المفارقة الواضحة فى هذا التعبير - له مهمة «خلاصية» تتساوى مع إقامة الصلاة والإنفاق من الرزق فكما أن الصلاة والزكاة معبران للنجاة، أى للانعتاق من نيران الجحيم الحامية وللفوز بلذائذ الجنة ومتعها وشهواتها وأفراحها، كذلك الحال مع الشورى، ولاغرابة إذن، إنما هو أمر طبيعى إن لم يكن بديهياً أن يجرهم ذلك إلى التوهم بأنها (=الشورى) أمر عبادى بحت، مثل الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمرات (تسميه العوام رجم إبليس ويستخدمون فيه أحذيتهم).

مع أن الشورى نظام بشرى اجتماعى تاريخى كان مطبقا قبل الإسلام بمعرفة القبائل فى شبه الجزيرة العربية مئات الأعوام، ولما جاء الإسلام استعاره منها كما هو دون تعديل ماعدا أنه فى عصر نشوء المذاهب الفقهية تكرس اسم «مجلس أهل الحل والعقد» وتوارى اسم «مجلس شورى القبيلة»

وهو تحوير شكلى محض لم يمس جوهر نظام الشورى قيد أنملة.

(لمزيد من التفصيلات نرجو الرجوع إلى كتابنا «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية» فى الفصل الخاص بـ «الشورى» - دار سينا للنشر).

والذين يُستشارون هم «الملأ» أى الأكابر والوجهاء الذين يملأون العين مهابة وجلالاً، ويتصدرون المجالس وبتعبيرنا المعاصر: مكانهم على المنصة وكانوا قبل الإسلام هم شيوخ القبيلة وأعيانها والأغنياء فيها، أما فى «تجربة المدينة» فقد أصبحوا «العشرة المبشرون بالجنة» الذين إذا تتبعت أنسابهم وجدت أنهم يمثلون أهم البطون فى قبيلة قريش، تيم: أبو بكر وطلحة، عدىّ: عمر وسعيد بن زيد، أمية: عثمان، هاشم: علىّ، أسد: الزبير، زهرة: عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص، فهر بن مالك: أبو عبيدة، وإن كنت تتمتع بذاكرة حافظة على قدر من القوة فإن هؤلاء - رضى الله عنهم - يذكرونك بـ«حكومة الملأ» التى كان جميع أعضائها من قريش دون سواها وهى الحكومة التى ثار عليها محمد عليه الصلاة والسلام ثم دحرها.

أما فى العهد «الخليفى» فقد استمر مجلس العشرة المبشرين بالجنة - أو من بقى منهم على قيد الحياة - يزاول مهام وظيفته، ولكن لابأس أن ينضم إليه فى حالات استثنائية بالغة الندرة بعض كبار المهاجرين والأنصار ولكنه بقى هو المرجعية الأولى والأخيرة ولذلك عندما طُعن عمر بن الخطاب - رضى الله - أوصى أن يتولى الخلافة من بعده واحد من ستة نفر كلهم بلااستثناء من مجلس العشرة.

* * *

أما فى الدولة الأموية فليس كما يحلو للعديدين أن يصوروها ملكا

عضوضا وكسروية وهرقلية.. الخ إنما هى الظروف الاجتماعية والبيئية والحضارية والاقتصادية التى حتمت تطوير نظام الحكم ولو وجد أى شخص آخر - صحابيا أو تابعياً - مكان معاوية لفعل مافعله تماماً لأن الموجبات التى ذكرناها قبل قليل هى التى أملت ذلك على معاوية فهو لم يكن سوى الأداة المنفذة.

وليس صحيحا علمياً أن الدولة الأموية أو العباسية أو الفاطمية ركنت الهامش البالغ الضآلة هامش الشورى المتمثل فى « مجلس أهل الحل والعقد » واستبد غالب حكامها بسبب تخاذل الفقهاء ونفاقهم وممالأتهم لهم، هذا سبب مجانى تبسيطى، استسهالى. وفى بدء تفنيد هذه الفرية وتوهينها وتعريتها نذكّر بما قام به الفقهاء والقراء والحفاظ فى سبيل الوقوف فى وجه البغاة من الخلفاء والولاة بالقدر الذى يسمح به المجال: فهم على سبيل المثال السريع لم يكتفوا بمؤازرة عبد الرحمن بن الأشعث فى ثورته ضد الحجاج الثقفى بألسنتهم أى بمواعظهم وخطبهم وفتاويهم بل شكلوا ضمن جيشه كتيبة كاملة عرفت باسم (كتيبة القراء) اشتركت فى القتال، وعقب الهزيمة نكل بهم طاغية بنى مروان (= الحجاج) أفظع تنكيل مابين قتل وتعذيب وحبس ومطاردة.

كما قدموا (= الفقهاء والمتكلمون) شهداء مثل: خبيب بن الزبير (قتله عمر بن عبد العزيز الذى يصفونه بـ « خامس الراشدين » عندما كان والياً على المدينة) وسعيد بن جبير ومعبد الجهنى وغيلان الدمشقى والجعد بن درهم رحمهم الله، وعُذب وطورد وشرد وحبس وجرّس العشرات نذكر منهم:

سعيد بن المسيب والشعبى وإبراهيم النخعى وسفيان الثورى وأبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل - نور الله قبورهم - والقائمة لكلا النوعين طويلة.

فكيف يستقيم التشدق بنفاق الفقهاء (بألف لام الاستغراق) وتزلفهم للخلفاء والعمال (الولاة) مع ماهو ثابت فى كتب التاريخ والسير والطبقات؟

وحتَّام (= حتى متى) الإصرار على المضى فى هذا الدرب الينكوب (= المنحرف) ؟

* * *

إن الطغيان الذى مارسه العديد من الخلفاء والولاة إنما يعود فى اعتقادنا إلى أمرين:

الأول: أنه طوال تلك المدة لم تتخلق فى رحم المجتمع العربى - الإسلامى برجوازية صلبة تطالب بحقها المشروع فى المشاركة السياسية الفعالة والمؤثرة فى صنع القرار، وهذا العامل للأسف مازال ممتداً حتى الآن، ولعله يفسر لنا استمرار الحكم الطاغوتى الذى يجثم على صدور الشعوب العربية والإسلامية تحت تنويعة شديدة الطرافة من الأسماء: ملكية - أميرية - سلطانية - مشيخية - جمهورية - جماهيرية....

الآخر: أن الديانات الإبراهيمية الثلاث لاتنظر إلى القاعدة الجماهيرية نظرة تقدير: (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) ٦/١١٦ (ولكن أكثر الناس لايعلمون) ١٢/٤٠ (ولكن أكثر الناس لايؤمنون) ١٢/١ (فأبى أكثر الناس إلا كفورا) ١٧/٨٩، والآيات فى هذا المعنى يصعب إحصاؤها، ولذلك فليس من قبيل المصادفة أن يصف القاعدة الجماهيرية كل من عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام (حسب التقدم فى الزمان لا الرتبة، نذكر هذا لنقطع السبيل على المزايدين والمتشنجين من الإسلامويين) بـ «الخراف» «والرعية»:

(أما أنا فإننى الراعى الصالح وأعرف خرافى وخرافى تعرفنى) انجيل يوحنا ١٤/١٠، و(عن معقل بن يسار رضى الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة إلا لم يجد رائحة الجنة) رواه البخارى ومسلم، فاتباع المسيح عليه السلام حسب تعبيره هم: خراف تعرف أنه راعيها، وفى القاموس المحيط الرعية هى الماشية الراعية والمرعية.

* * *

والحكم طوال التاريخ العربى/ الإسلامى تمحور على الدين وتمركز حوله وتمترس به، ولهذا كانت الذروة الدينية والسلطة السياسية تتماهيان فى شخص الخليفة، حقيقة أن الخلافة نظام مدنى، ولكن الخلفاء لكى يضفوا على سلطانهم المشروعية فى أعين الرعية كانوا يمتزجون بالشريعة ولعل أبسط دليل على ذلك تسمية الخلافة بـ «الإمامة العظمى» مما يستدعى فى الأذهان إمامة الصلاة، وكذلك تسمية الخليفة أمير المؤمنين وهو اللقب الذى يعجن الإمارة أى الحكم بالإيمان فى سبيكة واحدة ومن ثم تمسك به الخلفاء بداية بـ «عمر بن الخطاب» حتى عبد المجيد الثانى آخر خلفاء - والأصح أن يقال «سلاطين - بنى عثمان الأتراك» وكانت أغلى النصائح التى يوصى بها الخليفة ولى عهده الميمون.

(اجعل محبة الرعية لك اعتقاداً دينياً لديهم)!!!

ومتى كان الأمر كذلك فمن البديهى أن يتأثر الخليفة بنظرة الإسلام إلى القاعدة الجماهيرية ويراها مجرد رعية، والرعية لاتملك من أمرها شيئاً، بل إن راعيها هو الذى يملك كافة شئونها حتى حياتها، ومن هنا فإن طغيان من

طغى من الخلفاء والولاة وما أكثرهم جاء متسقا مع هذه الرؤية ومتناغماً معها ولانكون مغالين إذا قلنا إن اعتبار القاعدة الجماهيرية ووزنها بغير ميزان الرعية هو النشاز والشذوذ، ولذلك فليس مستغربا أن الخلفاء الذين حادوا عن ذلك الناموس (فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية = الناموس: القانون) لم يعمروا طويلاً وكانوا كالنقاط البيضاء القليلة العدد فى الثوب الأسود، وترسخت فى الوجدان رؤية الحاكم للمحكومين كرعية وغدت إحدى الموروثات ومكونات اللاشعور ومازالت شغالة حتى الآن، فعلى إحدى (الفيللات) الفاخرة بحى الدقى ترتفع لافتة زجاجية كتب عليها: «القسم القنصلى لشئون الرعايا» تابع لسفارة دولة عربية تفخر بأنها تطبق الشريعة.

* * *

والشورى فى الإسلام ليست ملزمة للحاكم الذى من حقه أن يعين أعضاء مجلس الشورى كما يحلو له ويختارهم على مزاجه، لأن الإسلام لايعرف الترشيح والانتخابات والتصويت... إلخ لافى نصوصه ولا فى تاريخه بسبب موقفه الحاسم من المحكومين ورؤيته لهم ك «رعية» وطبيعة العلاقة بين الراعى والرعية لاتسمح له أن يستشيرها حتى فى أخص شئون حياتها، والذين يحاولون النفخ فى أنف الشورى وتوريمه، لاهم قرأوا (النصوص) قراءة ناقدة واعية وربطوها بأسباب نزولها وبموجبات بيئتها وظروف مجتمعها الذى انبثقت هى فيه ولا أمعنوا النظر فى مدونات كتب التاريخ والسير، ولاقبلوا بما جاء فى أمهات كتب التفسير (فى هذه الخصوصية)، ولاهم لديهم الراديكالية الكافية حتى يقروا ويعترفوا بنظرة العقائد السامية الثلاث وآخرها (فى الترتيب الزمنى) الإسلام إلى القاعدة الجماهيرية التى أكثرها بموجب

(النصوص) لايعقل ولاندرى كيف يُستشار من لايعقل ولايتدبر ولايعلم؟!

إنهم يقرأون الماضى على ضوء الحاضر، وينزعون إلى إسقاط المفاهيم المعاصرة على (النصوص) وهذا منهج خاطىء، وفوق مخالفته لـ (العلمية والموضوعية) فإن (النصوص) ذاتها تخذلهم وتنقطع عنهم، كما أن وقائع التاريخ لأكثر من عشرة قرون تبهتهم (فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية = بهت الرجل: دهش مأخوذاً بالحجة) ورغم قرب القرون الأولى من طراوة (النصوص) وبكارتها ونضارتها وعذريتها فلم يطبق أحد إلزامية الشورى لسبب غاية فى البداهة هو أنها = (الإلزامية) تتصادم مع قاعدة كلية هى (رعوية) الشعوب المحكومة.

ومن ثم فإن الملك الذى وظف منذ شهور بضع مئات من رعاياه أعضاء فى مجلس شوراه وأمسك فى يديه العقدة وإليه وحده يؤوب الأمر فى نهاية المطاف إن شاء أخذ برأى المجلس وإن أراد ضرب به عرض الحائط - هذا الملك فى رأينا طبق الشورى كما أنزلت فى شريعة الإسلام، ولكن كل ما يؤخذ عليه هو أنه استمع لرجال الدين (حقته) أو عنده الذين أفتوه بأن يستخرج من المتاحف أو على وجه الدقة من تحت ركام الحفريات نظاماً مضى عليه عشرة ونيف من القرون كانت له فيها آنذاك مستلزماته ومشروطياته ودرجته المحددة أو بلفظ أدق المحدودة فى السلم الحضارى، إنما لم يعد لواحد منها (= المشروطيات والمستلزمات) وجود فى الوقت الراهن، تماما مثل مفتى عموم ديار مصر المحروسة الذى استمد من (مسطورة) حدثت منذ ألوف الأعوام حكما يريد أن يسرى فى القرن الحادى والعشرين الميلادى ليدمر مصالح الملايين من المواطنين التعساء.

وبعد

فإن الذين يمخرقون بأى الشورى هى الديمقراطية أو بديلها وأنها أمر تعبدى لايهدفون إلا إلى أن يستمر إلى الأبد حكم الطواغيت الممتد من المحيط إلى الخليج!!! ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم.

هذا الزمان ونجومه!!

منذ نيف وأربعين عاما كانوا مجهولى الحال، لم يكن يعرفهم أحد عدا من يتصل بهم بسبب مثل القرابة أو الجوار أو الوظيفة، ولم يحرص أحد لا من العامة ولا الخاصة على حفظ أسمائهم. أخبارهم عندما كانت تحملها الجرائد، تنشر فى الصفحات الداخلية وفى مواضع منزوية وذلك عند التعيين أو العزل فقط.

أولئك هم «عارضو السلع الدينية» بأصنافها الإبراهيمية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية، كانوا بنظر المواطن العادى فئات تؤدى فى أماكن محددة وفى أوقات معلومة طقوسا قد تصل أحيانا لديه لدرجة عالية من القداسة، ولكن أبدا لاصلة لها بحياته أو واقعه (المعاش)، وكانت رواتبهم ومحال أعمالهم ومساكنهم وملابسهم ووسائل ركوبهم شديدة التواضع، وماشعروا قط لذلك بأدنى حرج إذ لم تسيطر عليهم تطلعات دنيوية أو طموحات سياسية أو شهوات حكم، كانوا يعيشون على القليل ويرضون به ويحمدون الله عليه.

* * *

كان بجانبهم «مسوقون للعروض الدينية»/ قطاع خاص يترأسون جمعيات دينية، كان الكثير منهم يحوز كماً من المعلومات فى مجاله الثقافى/ ربما تفوق على مالدى نظيره (الميرى) وتمتع واحد أو اثنان من بينهم بشخصية كارزمية جذبت إليه الأتباع وكان رؤساء وأعضاء تلك الجمعيات يتميزون

بلباس فريد وهيئة مخصوصة وكان المواطنون يتطلعون إليهم باعتبار أنهم أناس لهم (يونى فورم) فريد وتعشش فى أدمغتهم أفكار عتيقة تجاوزها العصر وتخطاها فهى من دهور سحيقة، ولكن لابأس فلاضرر منهم بل على العكس فإن صورهم (الكرنفالية) تثرى (بانوراما)المجتمع وتمنح تشيكلته قدرا طيبا من التنوع والطرافة. كانت مقار تلك الجمعيات قابعة فى أركان منزوية بالأحياء الشعبية ومن يريدها فعليه أن يسعى إليها، وكانت تصدر مجلات بائسة: ورق خشن وطباعة بدائية وأثمان زهيدة، لاتعثر عليها لدى باعة الصحف لأن قراءها هم الأعضاء فحسب.

كانت ثقافة «حملة البضائع الدينية» من كلا القطاعين - العام والخاص - مسطورة فى (كتب صفراء) وهذا النعت مشتق من لون ورقها لأنه كان الأرخص، وكانت تباع فى (دكاكين وراقة) قديمة متهالكة فى حوارى حى الحسين الضيقة، أما مكتبات وسط البلد الأنيقة وحتى سور الأزبكية فيعرضان عنها ولايفكران فى بيعها لامن أجل مظهرها الرث، إنما لأن المثقف أو حتى القارىء العادى لايعنى بها لابسبب أسلوبها المتغضن الهرم فحسب بل لأن الثقافة التى تحويها بين دفتيها لاتناسب عقليته وأحواله والظرف الذى يعيش فيه ومن ثم فهى لاتجد قبولا لديه.

* * *

وقتذاك كانت المواسم الدينية وموالد الأولياء الصالحين والقديسين المباركين تدخل فى باب (الفلكلور الدينى)، تقام إما فى دور العبادة أو بجوار الأضرحة والمزارات، ولم تكن الحكومة تلتفت إليها أو تنقل وقائعها عبر الأثير، كان المصرى - مسلما أو مسيحيا - يجد فيها مزيجا من المتعة

الروحية والفسحة والفرجة والترويح عن النفس والمؤانسة وكان (رعاة) الموالد بنوعيها لايضيقون ذرعا بتضمين لياليها أنشطة يعتبرها المتزمتون تجاوزات أو محظورات مثل: الاختلاط والغناء والرقص ولعبة الثلاث ورقات وشرب الكيف وسماع قصص أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة على الربابة، ولا بأس من بعض المواويل الحمراء.

وكان حملة (البضائع الدينية) الذين يسرحون بها فى تلك الموالد يعاينون ذلك كله، ولكن كانوا يغضون الطرف عنه، إذ لاطاقة لهم بمصادمة القاعدة العريضة التى كانت تشهد الموالد وتمارس أو تتفرج على تلك الأنشطة أى أنهم كانوا يكتفون بـ«الإنكار القلبى» ومن هنا يجىء قولنا إن تلك الاحتفاليات أدخل فى باب (الفلكلور الدينى) من التعبد التقليدى حتى شعائر العبادة الأركانية - فى كلا الفرعين المورفين فى الدوحة الإبراهيمية الباسقة، كان المواطنون فى تلك الأيام يؤدونها بقدر ملحوظ من السهولة واليسر والتخفف وكانوا يسخرون من المتشددين المتنطعين ويطلقون عليهم ألقابا تثير الضحك.

كل ذلك يرجع إلى أن المجتمع حينذاك استكمل مقومات عقلانيته أو كاد وبلغ رشده أو أوشك على ذلك، فانتهى إلى القرار الصائب واهتدى إلى معرفة الموضع الصحيح لـ (السلع الدينية) والمكان المناسب لـ (حامليها وعارضيها ومسوقيها). ثم استدار الزمان وتغير الحال وتبدلت أمور كثيرة.

انفجار سكانى ارتفع معه التعداد من عشرين إلى ستين مليوناً، وزادت نسبة الأمية لا الأمية الحرفية فحسب بل الأمية التعليمية، ونزل مايقرب من خمس المواطنين إلى ماتحت حد الفقر بمقاييس الأمم المتحدة، وظهرت مدن

الصفيح والأحياء العشوائية وأحزمة البؤس وتفشت الجهالة والوحشية والدناءة وسكن مليونان من الأحياء مقابر الموتى، وعرف المجتمع جرائم كانت مجهولة: الاغتصاب وقتل المحارم وشم البودرة وتهريب الآثار. وعم الفساد كل المرافق وطال كبار الموظفين وصغارهم، أما الطبقة الوسطى وهى عماد المجتمع فقد تحللت أو كادت وهبط شطر كبير منها إلى القاع أما الباقى فهو فى معاناة مستمرة.

* * *

فى ذات الوقت حدث تحول يبدو للمتعجل النزق أنه عجيب أو غير منطقى ونعنى به ماطرأ على (حاملى السلع الدينية)، فقد قفزوا من مؤخرة المنظر إلى مقدمته، ثقافتهم التى كانت معزولة مهمشة أصبحت موضع العناية والاهتمام البالغين.

كل الجرائد والمجلات والدوريات تنوء بها ربما على كره كثير منها بها، وتوصلها لقرائها بشتى الأشكال وغدت صور «رؤساء شئون التقديس» وكبار عارضى البضاعة الدينية تقتحم التلفاز وأصواتهم المبجلة تمسك بناصية ميكروفونات الراديو. أما أخبارهم بكل تنويعاتها أصبحت مادة مقررة مستديمة على الإعلام المقروء:

تنقلاتهم الخارجية والداخلية وأمراضهم وعملياتهم الجراحية بل حتى خناقاتهم.

خلال هذا العام حدثت بين الغصنين الرئيسيين الوارفين فى الخميلة السامية المبروكة مناوشات تمت محاصرتها بسرعة فائقة ثم تصفيتهما بمصالحتين حدثتا فى «قدس الأقداس» بأصغرهما نقصد - أقلهما حجما -

نقلت وقائعهما إلى الجمهور المصرى الكريم بشتى الوسائط المتاحة لأن «البيت الكبير» راعى «حملة البضائع الدينية» يهمه أن يكون الفرعان زادهما الله ريفا وإخضرارا-: «سمنا على عسل»، هذه هى أصول اللعبة حتى تنام القاعدة العريضة من المواطنين البسطاء وعلى رأس أحلامها السعيدة ورؤاها الذهبية تعانق الرمزين المقدسين، ومادام الأمر كذلك فـ (كله تمام يا أفندم)، وعرك (البيت الكبير) أذنى الواعظين اللذين خرجا على النص ونسيا أو تناسيا الخط المرسوم غرورا منهما بحفنة من المريدين تجمهرت وراء كل منهما فظنا فى نفسيهما الزعامة التى تخولهما اقتحام المناطق المحظورة، وعلى كل فإن ماحدث لهما كان درسا بليغا وعبرة لكل من تسول له نفسه أن يصنع صنيعهما.

* * *

وإذ أن الشىء بالشىء يذكر وعلى ذكر الخناقات والمناوشات والتشاجرات فقد وقعت - بـ «الجناح الأصغر» حجما والأقدم تاريخا فى طريق الغيبيات والماورائيات واللامنظورات.. الخ واقعة لايصح إغفالها:

بعض العارضين من ذوى الرتب المتواضعة - لم يكونوا مذاكرين - أو إذا شئت الدقة لم يستوعبوا الدرس، لم يفهموه، لم يفطنوا إلى مراميه، لم يفقهوا دوافعه ودعك من مداخله ومخارجه وسراديبه ودهاليزه.. الخ.

والدرس باختصار شديد هو أن النبى أو الرسول - أى نبى أو أى رسول - هو ثائر بكل ما تحمله هذه اللفظة من معان وبكل ماتشى به من مدلولات وبكل ماتفضى به للمتلقى من مضامين - وهذه حقيقة تقع فى مستقر عين اليقين لدى كاتب هذه السطور - إنما بعد انتقال الثائر النبى أو النبى الثائر إلى

الرفيق الأعلى يؤول إرثه إلى (منظمة تراتبية) تسمى تارة - (حاخامية) وثانيةً (كنيسة) وثالثةً(مشيخة) أو (هيئة كبار علماء)، لها لوائحها الخاصة التى لاتمت يالضرورة بأدنى صلة بتعاليم النبى أو الرسول بل ربما تتنافى معها أو حتى تتصادم معها.

هذه المعلومة الأولية أو البديهية لم يدركها أولئك النفر من ذوى الرتب الصغيرة من العارضين بـ(الجناح الأصغر) وحاولوا الخروج عليها وشرعوا فى تخطى المراتب والانعتاق من القيود، كانت محاولة يائسة، وميئوس من نتائجها ولو أنها والحق يقال كانت شجاعة وجريئة، وإذ كنت أتابعها لا أملك نفسى من الإعجاب والإشفاق معا، وجاء الدرس الذى لقنوه بالغ الضراوة، شديد الصرامة، ومن المؤكد أن المقصود به هو إعلام من يوسوس له قرينه بالثورة/ الخروج على (المنظمة) بما ينتظره من مصير، وخاصة أن (البيت الكبير) يحرص على أن يظل فرعا التقديس أو جناحاه المبروكان مثالا للانضباط، لأنه ليس ساذجا ولاغرا ولا مأفونا، فهو إذ يغدق نعمه الجزيلة على الفرعين المقدسين لايسمح بوجود شغب أو اضطراب بداخلهما أو بأحدهما لكيلا يؤدى ذلك بطريق الحتم واللزوم إلى تعطيل الوظيفة الرئيسية لهما وهى (التعزيم) و(إضفاء البركة) عليه حتى يظل كبيرا فى عيون جموع المحكومين المغلوبين المقهورين ويزداد رسوخا وتمكينا.

* * *

ولسبب لايخفى على فطانة اللبيب وذكاء الأريب تفضل (البيت الكبير) ومنح الفرع الكبير محطة إذاعة ليبث خلالها ثقافته التى غدت أنسب ما تكون للمستوى المعرفى للقاعدة الجماهيرية التى تشكلت مؤخرا بفضل العوامل

التى أشرنا إليها آنفا.

* * *

وعرف (عارضو السلع الدينية) وخاصة المتقدمين والمتنفذين منهم الرواتب الضخام والجوائز السنية والمنح والعطايا والهدايا والمكافآت والبدلات...الخ.

وتعودوا على السفر إلى الخارج ولهم مواسم يطوفون فيها أركان المعمورة ولايذرون قارة من قارات العالم الخمس إلا وحلوا فيها بعد أن كان أقصى حلم الواحد منهم أن يغادر كفره أو قريته إلى العاصمة الكبرى أو إلى حاضرة إقليمه ليتعلم كيفية التسويق وطريقة العرض بعد أن حصّل الأساسيات فى (الكتّاب)، عبر (الفلكة). وسكنوا القصور والفيللات والشقق اللوكس والسوبر لوكس المكيفة الهواء ونزلوا الفنادق ذات النجوم الخمس وركبوا السيارات الفارهة: المرسيدس والبى إم دبليو والشيفورليه، وأخذوا يتنقلون بالطائرات وجالسوا الرؤساء والملوك وخالطوا السلاطين والأمراء وصاحبوا شيوخ النفط، وأنشئت لمقار أعمالهم مبان مترفة كلفت ملايين الجنيهات لهم فيها مكاتب فاخرة ومن حولهم مديرون وسكرتيرون ومساعدون لخدمتهم، وامتلأت الأرصفة وفروشات باعة الصحف فى الشوارع والميادين بكتب وكتيبات عنهم ولهم، وبعد أن كان شباب مصر يقرأ (محاورات أفلاطون) إذ به الآن يطالع (محاورات الداعية الإمام أو الإمام الداعيةَ فلان والحكيم الأريب علان).

وأدرك (البيت الكبير) الخطورة اللامتناهية لجهاز التلفاز لدى (الأمة الأمية) والمجتمع الذى تخلق فى العقود الأربعة الأواخر والذى ضربت الجهالة

فيه أطنابها وطالت مالايقل عن ثلاثة أرباعه فأسلم قياده إلى (حملة البضاعة الدينية) ليعرضوها على القاعدة العريضة فهي الملائمة لها، والمناسبة وحتى تعمل عملها فى صرفها عن الواقع الأليم ولتزيف وعيها حتى لايتشكل لديها الوعى الصحيح الذى يدعو لتغييره، ولثقافة (عارضى السلع الدينية) قدرة فذة على إقناع المحكومين بالرضى والقناعة والتسليم والسمع والطاعة حتى لو كان الحاكم عبدا حبشيا رأسه كزبيبة والانصراف عن الدنيا وتركها لأهلها والصبر على الفقر والحرمان لأن ذلك سيتم التعويض عنه فى الجنة بمتعها ونعيمها ولذائذها. .الخ، ومن هنا أصبح كبار العارضين والمسوقين لتلك البضائع هم الشموس والبدور اللامعة بالشاشة الصغيرة على كافة القنوات أناء الليل وأطراف النهار، وبعضهم يطالب بتخصيص قناة خاصة لهم أسوة بالمحطة التى خصصت لهم فى الإذاعة.

ونجحت الخطة نجاحا مذهلا فاق جميع التصورات وأوشكت السلع الدينية أن تهيمن على الفضاء الثقافى فى كل المجالات بما فيها الجامعات!!!

* * *

ولم يكتف (الفرع الكبير) فى الدوحة الإبراهيمية الميمونة بما أسبغ على (رؤساء شئون التقديس) فيه من مكانة - داخليا - لم يكونوا يتوقعونها أبدا - أو يحلمون بها لافى المنام ولافى اليقظة، إذا بهم يستوفدون دارسين لثقافتهم من كل فج عميق ويتكفل دافع الضرائب المطحون بنفقاتهم - (مما جميعه أو من الإبرة للصاروخ) كما بنوا لهم مدينة سكنية كاملة ليقيموا بها على الرحب والسعة وكان أحق بهذه المدينة البؤساء الذين زاحموا المقبورين فى

مشاويهم.

ومؤخرا تفتحت شهية (الفرع الكبير) ليغدو عالمياً ودوليا وكونيا ، فمد بصره إلى جمهوريات انفرط (العقد الثمين) الذى كان يربطها والذى وقاها شر التردى إلى القاع وهو المرتبة المعروفة بـ(العالم الثالث) الذى هبطت إليه جارتان نظيرتان تشتركان مع الجمهوريات فى سمات كثيرة فى مقدمتها العقيدة والأصول العرقية (الإثنية) ، طفق (الفرع الكبير) يشرع فى إنشاء معابد وإقامة مراكز بها تحمل الخزانة العامة عشرات الملايين من الجنيهات ولانفع من ورائها سوى المظهرية الكاذبة ومنافسة دولتين تملكان مليارات الدولارات التى تنبع من باطن الأرض، منافستهما - على زعامة العالم الإسلامى وهى زعامة لاقيمة لها لأن دول هذا العالم جميعها تصنف ضمن العالم الثالث - وبالتالى فإن الزعيمة لاتعدو أن تكون كذلك.

وأخيرا أعجبت (الفرع الكبير) هيئته الطاووسية التى اكتسبها حديثا فحدثته نفسه - والنفس غالبا أمارة بالسوء - إلى أن ينقلب إلى (محكمة تفتيش) تفرض هيمنتها على ما ينشر من مطبوعات - كافة المطبوعات حتى التى لاصلة لها بثقافة العقيدة، وحجته فى ذلك أن ثقافته مثل ملح الطعام تدخل فى كل مطعوم، كما أنها ثقافة من النوع الغلاب القاهر المهيمن المسيطر.. الخ وعلى كل الثقافات الأخرى أن تخضع لها وتذل وتقبل الأقدام قبل الأيدى وهو زعم غير صحيح وغير علمى، فمنذ أن ظهرت هذه الثقافة العتيقة إلى الوجود لم تكن لها أية هيمنة أو سيطرة على كافة فروع الثقافة الأخرى فى أية حقبة، والمراجع والمصادر متوافرة بالمئات تشهد على ذلك.

ولكن (البيت الكبير) استشاط غضبا من تلك الفعلة واستشف منها أن (الفرع الكبير) تعدى طوره وجاوز حده وظن أنه غدا (مركز قوة) من حقه أن يتحكم فى الحياة الثقافية وبعدها يمد يده المباركة إلى غيرها فكشر له عن أنيابه الحادة وأفهمه فى حسم حاسم أن يعود إلى حجمه الطبيعى وألا ينسى أصله، وما كان عليه منذ قريب، وأثمرت التكشيرة وآتت أكلها ، إذ سرعان ما تراجع «الفرع الكبير» وأعلن على لسان عمدته أنه لاشأن له بـ« ثقافة الآخرين» وأن يكتفى بثقافته العتيقة الميمونة وأنه تاب وأناب وأقسم بأغلظ الأيمان أنه لن يعود لمثلها أبدا.

أما الجناح الآخر فإذ أنه الأضأل حجما والأعرق تاريخا فلم يقصر وأقدم على خطوة تعويضية ظن سدنته أنها ذكية: أخذ يفتح فروعا له عبر البحار والمحيطات ولكن الأيام كشفت عن عقمها فلا هى أفادت الوطن ولاهى عادت على البؤساء المطحونين ممن يضمهم هذا الجناح بأى نفع، وأقرب الأدلة على ذلك الكارثة الى وقعت على رؤوس التعساء قاطنى منشية ناصر وعزبة الزبالين وفضحت الأحوال المرعبة التى لاتليق بالآدميين التى يعيشون فيها، ولاشك أن تكلفة فرع واحد مما يقام عبر المحيطات كانت كفيلة بتغيير الظروف المتردية تلك، ونحن هنا نكتب من منظور الوطن -همنا الشاغل- ودفاعا عن كل المستضعفين من مواطنى مصر بغض النظر عن عقائدهم التى لا شأن لها بحقوق المواطنة، ولم ولن يغير من مآسى سكان المنشية والعزبة الزيارة القدسانية التى نالوا بركتها ونعمتها ويالها من نعمة وبركة.

وبعد . . .

فلعل الابن العزيز الذى تفضل بزيارتى فى شقتى المتواضعة ليسألنى عن العلة الكامنة وراء ظهور هذه النوعية من النجوم عساه يكون قد عثر على جواب سؤاله فى سطورى السوابق وبدورى أسأله: من ينتظر خلاف هؤلاء الجهابذة البهاليل ليلبس مسوح النجومية فى زمن الأمية والجهالة والأساطير والخرافات والخزعبلات وظهور الكائنات الماورائية على أسوار المعابد ونسبة الانتصار المجيد إلى مجرد التفوه بعبارات ميتافيزيقية، وانتشار مدن الصفيح والأحياء العشوائية والعزب الهامشية وضرب البطالة للملايين من الجامعيين وذوى الشهادات المتوسطة وتفشى شمامى البودرة والطفيليين وراكبى سيارات الشبح والفاسدين والمفسدين، زمن الانفتاح الاستهلاكى الترفى والتبعية الذليلة الخاضعة للغرب الرأسمالى، الفاجر ثم للشرق أوسطية؟؟؟.

دراسة موازية

مصطلح دارج/ «الإسلام القبلى»

«الإسلام القبلى» - «الإسلام البدوى» - «الإسلام الصحراوى»....
مصطلحات شاعت على ألسنة المؤلفين والباحثين والكتاب فى العقدين الأخيرين وكاتب هذه السطور يقر ويعترف أنه استعملها فى بعض كتاباته - أقولها قبل أن يقولها لى قارىء واع أو مشاغب - ،وهى لاشك قامت بدور غير منكور فى التصدى للمتاجرين بالإسلام سواءً كانوا أفراداً أم أحزاباً أم جماعات، وساهمت بفعالية فى تعرية دعاوى جماعات العنف الدموى.

ونرجح أن هذا المصطلح من إيحاءات «الفرنجة» إما بطريق الترجمة أو التعريب أم بالاستلهام وقراءة مابين السطور حيناً والمسكوت عنه حيناً آخر. ونحن لانعنى بـ«الفرنجة» المستشرقين الذى يستحقون هذا اللقب عن جدارة أمثال: لويس ماسنيون وهاملتون جب وهنرى كوربان وكارل بروكلمان وأوجست فيشرو أضرابهم، ولكننا نقصد هؤلاء الذين يكتبون عن الإسلام وخاصة الإسلام المعاصر بقدر كبير من الهرولة والزلاقة والابتسار والتجييش من على شاكلة:

فرانسوا بورجا فى كتابه (الإسلام السياسى) وجيلزكيبل فى (الفرعون والنبى)، أو الذين انتهجوا خط التفخيم والتعظيم والتبجيل الذى يتسم بالفجاجة أمثال: موريس بوكاى (التوراة والقرآن والعلم) ورجاء سابقاً روجيه - جارودى فى (وعود الإسلام) وهما كتابان ضامران فكرياً أشد مايكون الضمور، وكذلك م. ولفريد هوفمان فى (الإسلام هو البديل) وهو مؤلف بالغ الهزال والتهافت ملىء بالأخطاء المعرفية والدينية والفقهية حتى إن مجلة

الأزهر وهى تستعرضه مزهوة مختالة اضطرت إلى اللجوء إلى الاستدراك والتحفظ تجاه أغلاط هذا الهوهمان -.

وأرجو ألايفهم مما أخطه الآن أننى ممن يرون أن هناك إسلاماً واحداً بلا مذاهب أو فرق فهذا خطأ منهجى، وتعمية عما دار على أرض الواقع منذ ظهور الإسلام فى مكة ثم انتقاله إلى يثرب (المدينة)، بل هو يعارض حديث الفرقة الناجية الذى أكد ضرورة انشعاب الإسلام إلى ثلاثة وسبعين فرعاً، شأنه فى ذلك شأن الديانتين الإبراهيميتين اللتين سبقتاه (زمنياً).

وكتب التاريخ الإسلامى ومؤلفات الفرق والملل والنحل أخبرتنا عن «إسلام سنى» «إسلام شيعى» و«إسلام خارجى» نسبة إلى الخوارج و«إسلام معتزلى» و«إسلام مرجئة» وكل واحد منها انصدع إلى شعب.

إذن ليس ثمة ما يمنع أن يظهر فى الوقت الراهن «إسلام قبلى» أو «بدوى» أو «صحراوى»............ ولكن البون شاسع بين الظهورين:

فى المرحلة الأولى كان الظهور طبيعياً ومن الداخل وبفعل عوامل حتمته فضلاً غن أنه عبّر عن واقع تعيّن أوتشيىء على الأرض، ولم يحدث أن جاء التوصيف من المناوئين، باستثناء الخوارج الذين اعترضوا على تأويل تسميتهم بالخوارج لا على التوصيف ذاته إذهم أنفسهم يرون أن خروجهم (= ثورتهم) كان على أئمة الجور أى الطواغيت لاعلى المسلمين (= أمة الإسلام). أما الان فالتسمية بـ«الإسلام البدوى» تأتى من الخصوم والمعارضين فهم الذين أطلقوها وأشاعوها وروجوا لها، هى إذن «برانية» قدمت من الخارج وأطلقها «الآخر» ومن ثم فهى مرفوضة ومستهجنة ممن وصف بها ومردودة على من ابتدعها. وليس هذا هو الفرق الوحيد فسوف تتضح

فروق أخرى بعد قليل. ولكن ما المقصود بـ«الإسلام القبلي» في نظر من يشهره؟ هو يعني بذلك أن الفتاوى والآراء والطروحات التي مردها الأساسي التقاليد والأعراف القبلية المنتشرة في دويلة من دويلات النفط تغطى بلباس إسلامي وتنسب إلى الإسلام وتحسب عليه وخاصة أن تلك الدويلة تحتاز مقدسات من قبل جميع الطوائف الإسلامية مما يضفي على إصدارات تلك الدويلة نوعاً من القدسانية - فإذا انبثق منها مايحرم الفنون الجميلة وفي مقدمتها التشكيلية وبالأخص التصوير أو ما يؤكد على أن المكان الطبيعي للمرأة هو عقر دارها وأن عملها ينحصر في تمتيع مذاكير الرجل وتربية أولاده.... الخ (هذه أمثلة سريعة) رد عليه إخواننا وغالباً مايكونون من التقدميين والمستنيرين والمتفتحين.. أن هذه الفتاوى أو الآراء من تجليات الإسلام القبلي ولاعلاقة لها بالإسلام الصحيح الذي هو على خلاف ذلك. وهذا تفنيد يحتاج من إخواننا إياهم - والله أسأل أن يجعل كلامي خفيفاً على تقدميتهم واستنارتهم وانفتاحهم - إلى إعادة نظر شاملة كاملة - لماذا؟

لأن الإسلام ظهر في مكة ثم هاجر إلى يثرب وحاول مع الطائف أي أنه خاطب في البداية منطقة الحجاز التي تسكنها قبائل: قريش في مكة وبنوقيلة (الأوس والخزرج) في يثرب وثقيف في الطائف - وقبل أن يخاطبها هو انبثق منها أي كان متجذراً ومغروساً فيها - والمجتمع فيها جميعاً بدون استثناء ذكوري، بطريركي (أبوي) له تقاليده الراسخة وأعرافه عميقة الغور منذ مئات السنين - ولم يكن مجتمعاً مدينياً نسبة إلى المدينة والقرآن الكريم نفسه سمى مكة والطائف (القريتين) وكفى بالقرآن شاهداً، ووصف الرسول عليه الصلاة والسلام أمه بأنها كانت تأكل القديد أي اللحم المجفف - وهو من

طعام أهل البادية، هذه القبائل التى انطلقت من بين جنباتها الديانة الإسلامية وفى ذات الوقت خاطبتها بنصوصها - كانت لها بالإضافة إلى الأعراف والتقاليد مؤسسات منها:

مؤسسة الملأ الحاكم - مؤسسة دار الندوة مقر الحكم - مؤسسة التحكيم وهم المحكمون الذين يفصلون فى الخلافات سواء بين بطون القبائل أو أفرادها - ومؤسسة الكهانة والعرافة، بجانب مؤسسات فرعية مثل سدانة البيت (يتولاها بنو شيبة ولازالوا حتى الآن ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين يمارسون هذا العمل)، ومؤسسة رفادة الحجيج ومؤسسة السفارة بين القبائل الأخرى ومؤسسة الرقيق.. الخ - ومن أبرز الأعراف التى كانت مهيمنة ولازال أغلبها كذلك: العرض والشرف، والأخذ بالثأر والولاء، والإجارة (مقابلها الاستجارة) واحترام الكبير لسنه وزواج الأقارب، والعصبية ونصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً والقصاص ودفع الديات....الخ

تلك الأعراف والتقاليد كانت من التمكن والعمق بحيث يغدو من المستحيل أن بضعاً وعشرين سنة - عمر الرسالة المحمدية - كانت كافية لمحوها أو حتى زحزحتها أو مجرد النيل منها، هذه واحدة.

أما الأخرى فإن الذى خاطبهم بالتعاليم الإسلامية عاش عمره كله قبل التبليغ وبعده فى ذلك المجتمع ذى التقاليد والأعراف الرواسى. فكان من الطبيعى أن تحمل تعاليم الإسلام تجلياتها وآثارها فى كل اتجاه:

الذى يتساوق مع النظام البطريركى الصارم والنسب الأبوى الذى يضع الذكر فى مقام الصدارة، ففى الميراث للذكر مثل الأنثيين وشهادة المرأة نصف شهادة الرجل والرجال قوامون على النساء وللزوج «ولاية التأديب على الزوجة»

التى تتمثل فى الوعظ والهجر فى المضجع والضرب تماماً مثل (ولاية الأب فى تأديب ابنه» و«ولاية المعلم فى تأديب تلميذه»، كما أن المرأة واليتيم والسفيه والذى لايحسن تدبير أموره المالية - هم من الضعفاء سواء بسواء، وأفضل عمل المرأة حسن تبعلها لزوجها أي التفانى فى خدمته ولو كان به قروح تنزف صديداً ،فلحستها الزوجة ما وفته حقه عليها، ولن تشم رائحة الجنة مالم تأخذ صكاً منه برضائه عليها، وإذا طلبها للمتعة فتأبت عليه ظلت الملائكة (بالف لاء الاستغراق) تلعنها حتى شروق الشمس، أما إذا كانت الرغبة من جانبها وتمنع هو عليها فلا بأس ولاتثريب عليه.

أما الجو القبلى فتجده ذا حضور كثيف:

فـ«الأنعام» أحد العناصر الفاعلة فى البيئة القبلية لها سورة كاملة باسمها فى القرآن الكريم، وكان اعتقادهم فى الجن - راسخاً وهناك سورة أخرى تحمل ذات الاسم، وإذا فتحت أى كتاب فى الفقه قابلتك أحكام ماء البئر بكثافة وهو مصدر السقيا لدى القبائل، وكذا أحكام الاستنجاء بالحجارة والتيمم وكل هذه أمور تتصل بمجتمع قبلى يعيش فى البوادى لابمجتمع زراعى حيث تفيض الأنهار بالمياه.. كما تجد فى الأحكام آثار المعتقدات القبلية مثل النهى عن أداء الصلاة وقت طلوع الشمس لإنها تطلع بين قرنى الشيطان وصلاة الاستسقاء عند احتباس المطر وأن السماء سوف تستجيب لهذه الصلاة فينهمر الغيث، وصلاة الكسوف وصلاة الخسوف باعتبار أنها علامات غضب الله وخاصة أن قوم عاد وثمود عاشوا فى جزيرة العرب وهلاكهم جاء على أيدى ظواهر جوية خوارق نتيجه انتقام السماء منهم.. وكراهية الحمام ودخوله بل وبنائه وبيعه وشرائه لأن عرب الجزيرة لم يعرفوه وكانوا يقضون حاجتهم رجالاً

ونساءً في الخلاء.. والنفور من التصوير وكافة الفنون الراقية الى تحتاج لقدر وفير من الرقي الحضاري الذى افتقدته تلك القبائل، والقائمة سوف تطول إذا أردنا استقصاء البصمات القبلية على النصوص الأصلية، التى هى كما ثبت مما سردناه ومن الكثير غيره أنها مغموسة فى القبلية ومنغرسة فيها وجذورها وفروعها وثمارها.. كلها منها ومن ثم فإن المحاجة بأن هذا (إسلام قبلى) عندما نواجه بفتوى معينة - هذه المحاجة - وإن كانت تريح النفس وتبعث على الاسترخاء والاستجمام، فإنها لم تقدم حلاً حاسماً- فضلاً عن بعدها عن الموضوعية المطلوبة - لأن من يتمسك بالفتوى فى مقدوره أن يتعلل بأن القبلية ليست قدحاً بل هى مدح لأنها تعنى العودة إلى المنابع الأولى - وإننى شخصياً أقف إلى جانبه فى هذه الخصوصية وبذلك تظل الإشكالية قائمة ولم تحل. إن الحل - ومن وجهة نظرنا - يحتاج إلى بذل جهد فى البحث والتنقيب عن جذور الفتوى الى توسم بأنها قبلية، بمعنى أوضح إلى القيام بعمل حفريات معرفية عنها للتوصل إلى الأساس التى انبنت عليه لا الاكتفاء بالقول بأنها من التقاليد الرعوية أو البدوية وهذه الحفريات تتطلب فى من يتولاها الإحاطة بكثير من «المعارف الدينية» - أفضل هذا التوصيف على عبارة «العلوم الدينية» لكيلا يختلط بـ«العلوم التجريبية» و«العلوم الإنسانية» - كما أنه أقرب إلى طبيعتها. والإحاطة المطلوبة شرط عسير التحقيق حالياً.

ونضرب مثلاً توضيحياً بما نعنيه بعبارة «حفريات معرفية»:-

أصدر الشيخ ابن عثيمين - وهو من حاملى البضاعة الدينية البارزين فى السعودية - فتوى تحرم على المرأة لبس البنطلون (أو البنطال لدى البعض) ولو فى عقر دارها ولو لزوجها فقط.

والرد الجاهز المجانى الذى يريح ويزيل التوتر، على هذه الفتوى التى تبدو للقارئ العجول أنها تحمل قدراً من العبثية أو الكاريكاتورية - الرد هو أن هذا فقه قبلى، بدوى، صحراوى، أعرابى إلى آخر هذه الأوصاف التقدمية جاءنا مع رياح الخماسين من جزيرة العرب ولاصلة له بالإسلام العظيم.

ولكن لو قمنا بعمل «حفرية معرفية» حول فتوى إبن عثيمين لاكتشفنا أنها ذات عروق ضاربة فى عمق النصوص الأصلية وأنها ليست من إبداعات أو ابتداعات صاحب الفضيلة:

فهناك حديث نبوى يلعن المتشبهات (من النسوان) بالرجال، وتحدثنا كتب التراث المعتمدة أن إحدى بنات أبى جهل بعد فتح مكة - خرجت متقلدة أقواساً وسهاماً وهى تمشى مشية الرجال ذاهبة للقنص والصيد فكان ذلك موضع استهجان من عدد من الصحابة وكانت تلك الفتاة الجريئة موضع حديثهم بالنهار وسمرهم بالليل - ومايراه الصحابة مستقبحاً فهو كذلك بلا نقاش لانهم النجوم التى يتعين على سائر المسلمين الاهتداء بها للوصول إلى الفلاح فى الدنيا والفوز بلذائذ الجنة ومتعها فى الدار الآخرة، ويظل رأيهم مقدساً حتى يرث الله الأرض ومن عليها لأنهم «جيل التأسيس» و«شهود الوحى». إذن فى المجتمع القبلى الذكورى الذى تدفقت من حناياه النصوص الأصلية محظور على المرأة أن تشارك الرجل حتى فى المظهر لأن هذا إخلال بـ«الهيبة الذكورية» يستوى فى ذلك تقلد القوس والسهم والخروج للصيد مع لبس البنطلون (البنطال) ولو فى داخل البيت وأمام الزوج فهذه كلها محرمات (تابو).

إذن فتوى ابن العثيمين - تجاوز الله عن سيئاته - لاهى جديدة ولامفاجأة

ولا (من عندياته) بل هي مؤصلة ومؤسسة واستمرار للنظرة الذكورية التي هيمنت ولازالت على القبائل في منطقة الحجاز حيث ظهر الإسلام وفي كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية. هذا مايتعين علينا أن نعمله مع كل فتوى من أمثال هذه الفتوى، أو رأى أو فكرة ننقب عن جذورها ونكتشف أصولها لنردها إليها ولنثبت لكل ذى عقل أنها نبت مجتمع قبلي ذكورى بطريركي وأنها تساوقت مع موجباته واتفقت مع درجته الحضارية وحققت الغايات التي استهدفت منها، وهو مجتمع يغاير مجتمعنا الزراعي الذى ارتبط من البداية بالنهر وشيد السدود والقناطر وأنشأ المدن وأقام التماثيل والمسلات وابتدع اللوحات الجدارية واكتشف كافة العلوم وبالجملة حقق حضارة باهرة لازالت حتى الآن تحيِّر العالم، ومن العنت لهؤلاء المزارعين النهريين مخاطبتهم بنصوص ظهرت في بيئة صحراوية مغايرة بالكلية ومن سائر الوجوه لبيئتهم، ومن ناحية أخرى:

فيه ظلم للنصوص وتحميلها فوق طاقتها بل مالم يخطر على بال واضعيها ومن ثم فإن المنهج الأمثل هو استخراج المعاني والقيمّ منها لا الوقوف أو التجمد على حروفها وبذلك نعطيها استمرارية وتجددية ونعفي المخاطبين بها من الإكراهات (الشكلية) الي تحملها والتي تصيبهم بالإرهاق والحرج - هذا هو الرد البرهاني الوحيد الذى تقابل به فتوى الشيخ ابن عثيمين وأضرابه أما وصفها بأنها من الإسلام القبلي/ البدوى / الصحراوى. فهذا يشكل رداً إنشائياً لم يفندها، هذا من ناحية، وبمضي الوقت سوف تذروه الرياح ويندثر ومن هنا يجيىء نعتنا له بأنه (دارج)، في قواميس اللغة: درج صغيراً أى مات دون عقب.

الفصل الثالث

مواجهة المواجهة

خليل عبد الكريم يُفنِّد دعاوى الإسلامويين

(ا)

عندما حمل إلىَّ الابن العزيز عصام عامر ملف المواجهة للتعليق عليه أدركت أنه طلب شبه مستحيل، إذ كيف يتسنى - وفى مدة وجيزة ومع المشكلات المتنوعة ومشاغل العمل - التعقيب على أقوال عشرين تحاوروا على اتساع عشر صفحات وبشرط ألايتجاوز الرد صفحة واحدة، ومن ثم تركت قراءاتى ودراساتى. وتفرغت لإنجاز هذه المهمة البالغة الصعوبة وإذ أننى «باحث فى الإسلاميات» فحسب وأؤمن بالتخصص وأحترمه لذا فإن تقييمى سوف يقتصر على دعاوى الإسلامويين، أما الرفاق الماركسيون والقوميون والناصريون والليبرالون، فأدعهم لمن هو أقدر منى وأعلم بـ الماركسية والقومية والناصرية والليبرالية.

قرأت كلام الإسلامويين سرداً (على بعضه) ثم فرداً (كل واحد منهم على حدة)، ولم أفاجأ باختلافهم ولابتناقضهم سواء بين بعضهم البعض أو لدى المتحاور نفسه لأننى أعلم أن كل ما اتصل بالأديان الإبراهيمية الثلاثة كان مثار خلاف واختلاف وتنافر وتباين وتشاحن.. الخ؛ فنشأت الفرق والمذاهب والطوائف والملل والنحل والشيع وكل واحدة منها تستبعد الأخرى وترفضها

وتنفيها وترمبها بالزيغ والضلال والفسوق والعصيان والمروق والغلو والكفر، ولم تفلت ديانة واحدة منها من هذه الظاهرة، ويرجع ذلك لأسباب عديدة يضيق المجال عن حصرها ولذا نقتصر على اثنين منها يتصلان بموضوعنا:

أولهما:

إنها (= الديانات الإبراهيمية الثلاث) تتمركز وتتمحور على الغيب الذى له من اسمه نصيب، ومن هنا ينبع تعدد تصوره وتخيله وتوهمه وتمثله.

والآخر:

إنها عبّرت عن مضامينها وأفكارها ومبادئها وطروحاتها بلغة متعالية مرموزة مؤسطرة مملوءة بالشفرات والاستعارات والأمثال وغموض دلالة المعنى وهو مايسميه القرآن «المتشابه»، وهذا مامنحها القدسية والهيبة وضمن لها البقاء من ناحية الزمن والعبور والانتشار من ناحية المكان؛ ولكنه من جانب آخر أفرز تباين التفسيرات والتأويلات والشروحات وتضاربها لأنها كما قيّمها علىّ بن أبى طالب (حمالة أوجه) أى تتسع للمدلول ونقيضه فى ذات اللحظة، إذن تباين آراء الإسلامويين وتضاربها كان متوقعاً وإن شئنا الدقة كان حتمياً.

(٣)

لكن مع هذا التضارب البيّن والملموس فإن الإسلامويين على اختلاف فصائلهم وتياراتهم وتوجهاتهم اجتمعوا على ثوابت ويقينيات نكتفى بذكر

أبرزها :

أ- إن «النصوص المقدسة» بما تنضوى عليه من الأوامر والنواهى والأحكام والأخبار والقصص والمواعظ كفيلة بإرشاد البشر إلى أكمل الأنظمة والقوانين والمؤسسات... إلخ فى كافة مناحى حياتهم وأنهم بذلك غير محتاجين للاستعانة أو حتى الالتفات إلى أى خبرات أخرى لأن الأخيرة بشرية ومقارنة السماوى بالأرضى ضرب من العته والجنون كما أنها (=النصوص المقدسة) فيها سائر النظريات العلمية التجريبية والإنسانية التى ظهرت وتظهر وسوف تظهر إلى يوم القيامة، وإذا كان «الفرنجة» الذين لم يقرأوها لجهلهم باللغة العربية التى كتبت بها سبقوا المسلمين إلى اكتشاف العديد من النظريات العلمية التجريبية والإنسانية فإنها (= النصوص المقدسة) غير مسئولة عن عجز المسلمين عن ذلك.

(ب) إن «النصوص المقدسة» تطبق كما هى بحرفيتها بغير تفسير أو تأويل ودون ربطها بأسباب نزولها أو مناسبات ورودها مع غض البصر عن أحوال أول من تلقاها وبيئتهم ومجتمعهم ودرجة ثقافتهم وموقعهم من السلم الحضارى لأن هذه النصوص صالحة لكل زمان ومكان لأنها فوق الزمان وعابرة لأى مكان ومتعالية ولا شأن لها بالعوارض البشرية رغم التسليم بأنها تخاطب آدميين يعيشون حسب نواميس طبيعية صارمة ولايعنيها مرور الزمن ولاتغير البيئات والمجتمعات والثقافات والحضارات..إلخ وإذا عانى المخاطبون بها فى القرن الخامس عشر عُسراً أو ضيقاً أو شدة أو حرجاً أو مشقة..الخ إذا طبقت عليهم ففرض عليهم أن يكيّفوا شئونهم حسب إكراهاتها لا العكس لأن العالى لايخضع للوطيئ والسماوى لاينزل لمستوى الأرضى والمقدس لايأبه

بالمدنس.

(ج) إن «تجربة المدينة» مثالية لم ير العالم مثلها ولن يرى إلى أن يرث الله الأرض وماعليها، وأن الفاعلين الاجتماعيين فيها رغم إنهم أناس إلا أنهم كانوا مبرئين من النوازع والغرائز البشرية والمطامح والأهواء... وحققوا «المجتمع النموذج» الذى طالما حلم به الفلاسفة والمصلحون الطوباويون، وكل واحد منهم أسوة حسنة فى قوله وعمله، فى مظهره ومخبره، فى شدته ورخائه، فى غضبه ورضاه.. إلخ وأن الاقتداء به يوصل إلى طريق الهداية والنجاح فى هذه الحياة ومابعدها، أما الذى شجر بينهم من عراك وما استعر من حروب طاحنة وماتبادلوه جهاراً نهاراً من سب ولعن واتهامات فهذه أمور يجب علينا ألا نخوض فيها أو حتى أن نشير إليها ولو إشارة عابرة لأن عقولنا قاصرة تعجز عن فهمها أو النفاذ إلى كنهها أو التعرف على الحكمة الرائعة من وراء وقوعها.

(د) إن «تجربة المدينة» من اليسير استعادتها وتكرارها الآن فى القرن الخامس عشر الهجرى رغم حدوثها فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى ولايهم تغير جميع الظروف والبيئات والأنظمة والأنساق... وبرغم الادعاء من جانب الإخوة الإسلامويين أن الذين حققوها وموضعوها على أرض الواقع كانوا نوعاً فريداً من البشر لم ولن يتكرر لأنهم عاشوا لحظة التفجر وفترة التدشين والانطلاق، ورغم ما أثبته التاريخ الإسلامى أن القرون اللواحق التى جاءت بعدها عجزت عن تقليدها- دعك من استعادتها- ومع وجود «نص مقدس» يؤكد العد التنازلى لرداءة القرون كلما بعدت عن قرن التجربة. رغم كل هذا يشق

الإسلامويون المحدثون- الذين نتولى هنا توهين دعواهم فى قدرتهم على تحقيق ما أعجز سلفهم الصالح، وأنهم إذا تسلموا زمام الحكم الذى يحلمون به فى اليقظة وعيونهم مفتوحة قبل المنام، سوف يعيدون «التجربة» بحذافيرها حذوك القذة بالقذة.

(هـ) إن البشرية كانت قاصرة ولم تبلغ رشدها إلا فى الربع الأول من القرن السابع الميلادى فى منطقة الحجاز بشبه جزيرة العرب وأن كل الحضارات والثقافات والأنظمة والعلوم والفلسفات والآداب... أدلة ثبوت على قصور الإنسانية وعدم بلوغها سن الرشد.

(و) إن كل النظريات والمفاهيم والمؤسسات والأنظمة والشرائع والقوانين التى توصل إليها غير المسلمين مرفوضة فهى إما مغرقة فى المادية أو ممعنة فى المثالية بعكس الإسلام فهو وحده الذى عرف الوسطية والتعادلية ومزج بين الروح والمادة مزجاً لاعهد للإنسانية به وبطريقة فريدة أعجزت كل دين ونظرية قبله ولن يجيئ مايفوقه أو حتى يساويه فى هذا المضمار كما أنه هو الذى تماهت فيه السياسة وغدت جزءاً من نسيجه لايمكن فصلها عنه أو فصمه عنها، وأن القول بأن الدين- أى دين حتى ولو كان أرضياً- لايخرج بأى حال عن كونه عقيدة (توحيد -تثليث- تشريك) وعبادة (طقوس) وأخلاق وأن مكانه الأصيل: الجوامع والكنائس والمعابد والصوامع والأبرشيات والأديرة، والربط والخانقاهات والتكايا والزوايا وحلقات الذكر ومجالس دلائل الخيرات والحضرات الصوفية والحسينيات وموالد الأولياء والقديسين. .إلخ وأنه إذا

خرج من هذه الأمكنه المبروكة تغيرت كينونته كما السمكة إذا غادرت الماء...
هذا القبول «بدعة إبليسية» أشاعها المستشرقون وأتباعهم من المسلمين بالاسم أو ببطاقة الهوية فقط، الهدف من ورائه القضاء على الإسلام والإجهاز عليه.

هذه هي مظاهر «الدوجما» أو التصلب العقلي التي تعشش في رءوس جميع الإسلامويين دون استثناء، أما المسلم الذي يناقض أو حتى يناقش في جزء طفيف من إحدى هذه الثبوتيات فيقذف به في دائرة الردة: يرمى في الحبس لمدة ثلاثة أيام كوامل يعطى خلالها كل يوم قلة ماء ورغيف عيش- وهذا مايعرف بـ«الاستتابة» - فإذا لم يعدل عن ردته بأن يرجع عن جدله ولو في شطر من تلك الثوابت المسلمات يصبح دمه وماله وعرضه (=نساؤه: زوجته وبناته) حلالاً لجماعة المسلمين.

(٣)

عندما فرغت من قراءة ملف المواجهة مرتين= سرداً وفرداً، هالنى هذا الكم من الهزال الفكرى والضمور الثقافى والأنيميا فى المعلومات والضيق فى المعارف والجفاف فى العلم والضحالة فى الفقة.. إلخ الذى ظهر جلياً فى حوارات الإسلامويين، صحيح أننى بحكم إختلاطى بالكثيرين منهم أعرف أنهم من النوع «السماعى» الذى يعمد فى «التحصيل» على أذنيه وربما يعود ذلك- حسب طروحات علم الأناسة أو الانثروبولوچيا- إلى أننا «أمة أمية» وأن التدوين لم يبدأ فى الإسلام إلا بعد قرنين من الزمان من «تجربة المدينة» وبعد

اختلاط العرب المسلمين بالأمم الأخرى ذات الحضارات والثقافات العريقة- ولكنْ لم أتصور أن يكون بهذا الشكل هؤلاء الذين يصرون على الإنعام على أنفسهم بلقب «رموز الحركة ونجومها الطالعة وبدورها الساطعة وكواكبها اللامعة»، إنما هذا الكم الكثيف مما ذكرت آنفاً فسّر لى أموراً كثيرة كانت تحيرنى ولا أجد لها تفسيراً.

لو أحصيت الأخطاء التى تردى فيها الإسلامويون لاستغرق ذلك عشر صفحات على عشرة أعداد من جريدة الأحرار، ومن ثم فأننى وأنا مضطر ومكره، أن أقتصر على أهما:-

* * *

قال أحدهم وشايعه فى ذلك آخرون إن الإسلام سبق الدنيا كلها بـ«التعددية» وهذا نقص فى المعلومات لايخفى على أحد كما أنه يناقض حديث «الفرقة الناجية» الذى أخبر أن الديانتين الإبراهيمتين السابقتين عليه افترقت كل واحدة منهما إلى أكثر من ستين فرقة ثم أضاف الأخ الإسلاموى أو الإسلاموى الأخ للتدليل على خرافة التعددية فى الإسلام وسبقه الدنيا بها وجود المذاهب الفقهية (أوصلها أحدهم إلى ثلاثة وعشرين مذهباً)، وهذا تلبيس وشعبذة (فى المعجم الوسيط: شعبذ أى زيّن الباطل لإيهام أنه حق) لإن المذاهب تعددت فى المجال الفقهى والمطلوب- كما هو ظاهر من سياق السؤال: التعددية فى النطاق السياسى- والأخ الإسلاموى ومن يلف لفه معذورون فى اللجوء -للإثبات على التعددية- إلى التعددية الفقهية لإن التعددية السياسية يعوزهم تقديم دليل ثبوت عليها- وليس من دأبنا إرسال الكلام على عواهنه بل تقديم الحجة والبرهان عليه والحجج والبراهين على

إنكار الإسلام للتعددية السياسية ورفضه إياها عديدة بل هى أكثر من أن تحصى، تفيض بها أمهات كتب التاريخ الإسلامى ولضيق الحيز المتاح نكتفى بإيراد أبرزها وهى فى ذات الوقت تخص شخصيات عاشت فى زمن «التأسيس والتكوين» أو بعده بقليل ويكن لها الإسلامويون قدسانية مكثفة:

(١) ضاق الخناق على سعد بن عبادة مرشح الأنصار للخلافة فى سقيفة بنى ساعدة فاضطر للهرب من المدينة- شأن كل المعارضين فى كل زمان ومكان- وذهب للشام ولكن تمت ملاحقته هناك وتصفيته جسدياً بطريقة غامضة أحجم المؤرخون عن ذكرها وأشاع الذين اغتالوه أن الجن -نعم الجن- هم الذين قتلوه إذ أصابوه بسهم نافذ آدمى فؤاده!!!

(٢) قاتل على بن أبى طالب كلا من: طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين- لمجرد أنهم نازعوه فى أحقيته لتولى منصب الخلافة ودرات بينهم موقعة الجمل التى سقط فيها على أقل تقدير عشرة آلاف قتيل وشارك فى المعركة جم غفير من مشاهير الصحابة (الفاعلين الاجتماعيين لتجربة المدنية)، ولو قيل إن طلحة والزبير وعائشة هم الذين شهروا سيوفهم فى وجه علىّ لجاء الرد :لو كانت فى الإسلام تعددية لاتغيب عن ذهن هؤلاء ولاعن علمهم فكيف لجأوا إلى القتال لنيل حقوقهم التى يرون أنها مشروعة وأن علياً اغتصبها منهم؟ ولماذا لم يسلكوا السبل التى تتفق مع التعددية؟ وهل إسلامويو القرن الخامس عشر الهجرى أعرف بالإسلام من هؤلاء الصحابة الأكابر وكيف يقبل العقل أن يجهل على وطلحة والزبير وعائشة التعددية السياسية ولايذكرها واحد منهم فى أقواله ولايطبقها فى أعماله ثم يأتى إسلامويو هذا الزمن العجيب فيؤكدون وجودها!!!

(٣) معاوية بن أبى سفيان -الصحابى- أحد المشاركين فى تجربة المدينة- كاتب الوحى- صهر الرسول عليه الصلاة والسلام قتل حجر بن عدى الكندى وستة من أصحابه- كلهم من خيار المسلمين- انحصرت جريرتهم أنهم فى اجتماعاتهم الخاصة والتى يعقدونها داخل دورهم وتقتصر عليهم كانوا يعلنون سخطهم على ممارساته السياسية والمالية ولم يؤثر عن أحدهم أنه شق عصا الطاعة عليه أو رفع عود أراك ليقاتله.

فلو كانت هناك تعددية سياسية- فى الإسلام- فلماذا لم يسمح معاوية بقيام (حزب حجر بن عدى الكندى) وقد ثبت أنه كان يمارس حقه فى النقد بطريقة سلمية لا أثر فيها للعنف؟

لماذا قتل معاوية حجراً وأصحابه لو أنه (= معاوية) سمع مجرد سماع عن التعددية السياسية أو لو كانت هناك نصوص تقول بها وتلزم بها الحاكم المسلم؟

(٤) عبد الملك بن مروان كان من التابعين وحملت بعض دواوين السنة روايته فلما تولى الخلافة أغلق المصحف وقال: الآن سوف نفترق وهى عبارة بالغة الدلالة، وفى خلافته فعل بخصومه الأفاعيل:

قتل عبد الله ومصعباً ولدى الصحابى ابن الزبير والفقيه الإمام سعيد ابن جبير وابن الأشعث والخوارج وعدداً لايحصيه إلا الله وحده وقذف الكعبة بالمنجانيق وشرّد أعلام الفقهاء من التابعين على رأسهم الحسن البصرى وعامر بن شراحيل الشعبى وإبراهيم النخعى.. كل هذا لأنهم عارضوه وسياسته التى يطبقها ولاته الطواغيت، فلو كانت هناك تعددية سياسية فى الإسلام فلماذا سلك عبد الملك التابعى راوى الأحاديث النبوية «حمامة المسجد» هذه

المسالك الوعرة؟

(٥) عمر بن عبد العزيز الذى ينعم عليه الأخوة الإسلامويون أو الإسلامويون الإخوة بلقب «خامس الراشدين» ويتغنون بعدله وزهده ويعتبرون مدة خلافته (ملحقاً) لـ «تجربة المدينة»- عندما كان والياً على المدينة جلد حفيداً للزبير بن العوام اسمه (خبيب) «بالخاء» لأنه كان يجاهر بنقده لبنى أمية عامة ولآل مروان خاصة وعندما نقلوا خبيباً (بالخاء) إلى داره فاضت روحه، أى أن خامس الراشدين ونموذج العدل والزهد والتجرد هو الذى قتله.

فلماذا فعل ذلك وهو كما حُكى عنه أنه كان من أعلم أهل زمانه بالإسلام ولو كانت هناك تعددية تسمح بمعارضة الحاكم باللسان فلماذا لم يترك حفيد الزبير وشأنه ويقول: هذا من حقه ولاتثريب عليه.

* * *

هذه أدلة موثقة ومؤكدة سقناها للإسلامويين الإخوة وتعمدنا أن يكون أبطالها من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين حتى لايقال إننا ننبش فى قمامة التاريخ، كما أننا لم نختر شخصيات (مضروبة) مثل يزيد بن معاوية أو الوليد بن يزيد بن عبد الملك المشهور تاريخياً بـ«الوليد الثانى»، وذلك لكيلا نعطى مجالاً للتوهين والتضعيف ولو كانت هناك تعددية سياسية فى الإسلام فما هو السبب فى هذا الكم من الحروب الأهلية التى لم تكد تنقطع؟ وكيف كان يتم انتقال السلطة بالطرق السلمية أم بالمعارك والاغتيالات؟؟

وهنا قد يقول أحدهم إن الإسلام لايتحمل وزر أحد مهما كان قدره؟

والعبرة بالنصوص لا بأعمال الرجال!!! ونحن نرد عليه بالآتى:-

أين هى النصوص الصريحة والقاطعة على التعددية السياسية، دلونا عليها بشرط أن تدل على التعددية بصورة جلية واضحة لا عن طريق لوى أعناقها وتحميلها مالاتطيق أو عبر المغالطة باسقاط معانٍ جديدة لم تعرفها النصوص ولايتسع وعاؤها لها.

وإذا كان علىّ والزبير وطلحة وعائشة ومعاوية وعبد الملك والأشج عمر بن عبد العزيز لاعبرة بأعمالهم ولايمثلون الإسلام فمن الذى يمثله؟ وإذا كانت ممارسات هؤلاء بعيدة كل البعد عن التعددية الإسلامية التى جاءت بها النصوص - فى زعم الإسلامويين- أليس فى هذا اتهام لهؤلاء بعدم الالتزام بالنصوص وتجاهلها وهو أمر عظيم لانظن أن الإخوة قد فطنوا إليه!!!

وإذا كانت هناك نصوص بالتعددية الإسلامية وعجز أولئك عن الالتزام بها فكيف يتسنى للإسلامويين أن يلتزموا هم بها؟

وأخيراً لعل الأخوة الإسلامويون بعد كل هذا ينزعون من أدمغتهم «خرافة» وجود تعددية سياسية فى الإسلام، ونؤكد لهم أن الإسلام ليس بدعاً فى ذلك فقد سبقته الديانتان الساميتان اللتان تقدمتا (فى الترتيب الزمنى) ولايعرف التاريخ أى حكومة تتمحور على الدين أو تتصل به بأوهى علاقة تقرّ بوجود خصوم لها أو تسلم لهم بأى حقوق بل على النقيض هى:

ترفضهم وتستبعدهم وتنفيهم وتصفيهم جسدياً ومعنوياً وتحصرهم وتقعد لهم كل مرصد وتقتلهم أفراداً وجماعات ومهما كانت صلتهم بأولى الأمر، فالعباسيون والعلويون أبناء عمومة ولكن لم يشفع ذلك لهم من تلقى أبشع أنواع التنكيل والتشريد والاغتيال!!!

ويبقى بعد ذلك أن مما يدعو للأسف هو أن يثور جدل حول البديهيات التى هى أظهر من الشمس فى رابعة النهار، ولايتم الجدل فى خفوت وعلى استحياء بل بكل جرأة وجسارة وبأعلى صوت ممكن.

* * *

واستدل أحدهم على أن المجتمع الإسلامى مجتمع مدنى بوجود اربع مؤسسات فيه : الزكاة / الأوقاف/ الحسبة/ المسجد، وقبل أن نناقش هذه المقولة العجيبة نظن أن قائلها يعلم أن المجتمعات التى أفرزتها الديانات الساميّة الثلاث هى مجتمعات دينية من إخمص قدمها حتى رأس شعرها، والمجتمع فى الإسلام يعبر عنه بـ« الأمة » مرة و« جماعة المؤمنين » أو « الجماعة » مرة أخرى، ولذا يطلق على جمهور المسلمين « أهل السنة والجماعة » تمييزاً لهم عن الشيعة « أهل العصمة والعدالة » ، والسنة والشيعة هما جناحا الإسلام الرئيسيان وتسمية كل منهما تمت بألفاظ ثيولوچية (السنة/ العصمة/ العدالة) حتى « المعتزلة » توصيفهم مشتق من ألفاظ دينية فهم « أهل العدل و التوحيد » فكيف يقال إن المجتمع الإسلامى مجتمع مدنى وهو منغرس فى الدين ومؤسس عليه!!!

إذن الجدل حول ذلك لايقصد به وجه الحق.

ولكننى « أشد على يدى » ذلك القائل لأنه قدم لنا دليل ثبوت جديد على دينية المجتمع الذى لم يفرز سوى تلك المؤسسات الأربع و كلها دينية محض « وشهد شاهد من أهلها » .

فالزكاة فضلا عن أنها « أوساخ المسلمين » حسب تعبير الرسول عليه

الصلاة والسلام فإنها لو أنشئت لها مؤسسة لتحولت نسبة كبيرة من المجتمع إلى متسولين وتنابلة وكسالى ، أما كونها دينية فهذا ناتج من بنيتها أو تكوينها فهى تتأسس على « نصوص مقدسة » والذى يرأسها يجب أن يكون « فقى قرارى » أى فقيه ضليع عارف بأحكام الزكاة وأنواعها ومواعيد استحقاقها ومصارفها وأماكن توزيعها ... إلخ

أما الحسبة فيتعين أن يكون المحتسب أو متولى الحسبة « مشيخة عَ الآخر » عالما بالقرآن والسنة وأحكام المعاملات فى المذاهب الأربعة ... الخ، ونحيل الأخ الإسلاموى أو الإسلاموى الأخ إلى كتاب « معالم القربة فى أحكام الحسبة » للفقيه ابن الإخوة وهو من إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وإلى ما أورده فيه بخصوص الشروط التي يجب توافرها فى المحتسب ، فهل مثل هذا الموظف يستساغ أن يقال عنه إنه موظف مدنى وأن العمل الذى يباشره عمل مدنى ؟

أما الأوقاف فإن كان المقصود بها « الأوقاف الدينية » المحبوسة على المساجد والجوامع والزوايا والتكايا والربط والخانقاهات ومدارس المذاهب الفقهية الأربعة ...

فما هو وجه « المدنية » فيها ، أما « الأوقاف الأهلية » فهذه كما يرى أكثر الفقهاء لاتعدو كونها حيلة لجأ إليها الواقفون عندما أحسوا أن « النصوص المقدسة » المتعلقة بالمواريث لم تعد تتساوق مع موجبات عصرهم ، ومع كل فإن الأوقاف أهلية ودينية كانت تختص بنظرها المحاكم الشرعية (قبل إلغائها) وهذا دليل على « دينيتها »- فكيف يقال بعد ذلك أنها مؤسسة

مدنية؟

أما المسجد فلعلها المرة الأولى التى يدّعى فيها مسلم أنه مؤسسة «مدنية» ولو قالها «آخر» أو «غير إسلاموى» لرماه الإسلامويون بالتهمة الكلاسيكية: هدم الإسلام وتخريبه...

وإذا كان الأخ صاحب هذه المقولة يقصد بعض الوظائف التى كانت تُباشر فى المسجد إبّان «عصر التدشين أو التأسيس أو التكوين» مثل: إرسال البعوث العسكرية واستقبال الوفود وكتابة عقود الأمان والإقطاعات.. إلخ فهذه العمالات استعارها الإسلام مما كان يجرى فى «دار الندوة» التى أنشأها قصىّ بن كلاب بن مرة فى مكة. (لمزيد من التفصيلات عما أخذه الإسلام مما قبله انظر كتابنا «الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية»)، ولكنْ ظروف التطور حتمت أن يقتصر المسجد على عمله الرئيس: الصلاة وإلقاء الخطب المنبرية والمواعظ التى تهتز لها القلوب وتذرف لها العيون الدموع الغزيرة... والمناداة بإعادة تلك الوظائف إلى المسجد نوع من العبث واللامعقول والذى يمارى فى ذلك نرد عليه بالآتى:

تخيل رئيس الجمهورية وهو يستقبل رؤساء الدول وسفراءها فى الجامع الأزهر أو وزير الخارجية ومعه وزير خارجية أمريكا (مثلاً) وهما يوقعان اتفاقية فى أحد أروقة ذلك الجامع، أو انعقدت فيه دائرة لنظر قضايا الأحوال الشخصية أو أن الطائرات والدبابات تنطلق من صحنه العتيق لأداء مهام قتالية... وهكذا فإن أغلب ماينادى به الإسلامويون الإخوة أو الإخوة الإسلامويون نوع من «الفانتازيا» الصارخة أو الفاقعة لأنهم يُسقطون من حسابهم المتغيرات والمستجدات التى تعاقبت على مدار أربعة عشر قرنا

ويحلمون بإعادة فترة ذهبية- أثبت التاريخ أنها لم تكن بالصورة الذهبية التى يتوهمون أنها كانت عليها- ومع التسليم الجدلى بأنها كانت كذلك فإن ظروفها تختلف أشد الاختلاف عن الظروف الراهنة واستعادتها أمر مستحيل.

وأخيراً هل مازال الأخ صاحب المقالة يُصر على أن مؤسساته الأربع المبروكة هى من أدلة «مدنية» المجتمع الإسلامى أم يتبِّع الشريعة التى ملأ الدنيا صياحاً بلزوم تطبيقها ويعلن على الملاحظات كما فعل عمر بن الخطاب من على المنبر- أنه أخطأ!!!

وقال أحدهم إن الشريعة الإسلامية كانت مطبقة فى مصر لمدة ثلاثة عشر قرناً حتى الغزو الفرنسى ثم الاحتلال الإنكليزى، وكل الإسلامويين يلوكون هذه المقولة ويرددونها دون أن يتدبر فيها أحدهم ودون أن يكلف نفسه عناء النظر فى كتب التاريخ التى أرّخت لمصر منذ الفتح العربى ووصفت أحوالها بدقة- وسبق أن قلنا لهم ومازلنا نقول:

فى أى عهد كانت الشريعة الإسلامية مطبقة سواء من قبل الحكام أو المحكومين بداية بـ«عصر الولاة» حتى «عهد العثمانلية»؟؟؟ إننى أحتكم إلى ماكتبه الذين أرخوا لهذه العهود من ثقاة المؤرخين:

أبو عمر الكندى فى «الولاة- القضاة»، المقريزى فى «الخطط»، جمال الدين أبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة»، ابن إياس فى «بدائع الزهور»، عبد اللطيف البغدادى فى «الإفادة والاعتبار»، السيوطى فى «حسن المحاضرة» وأخيراً الجبرتى فى «عجائب الآثار».

وما سطره الرحالة الذين زاروا مصر خلال تلك العصور:

ناصر خسرو فى «سفرنامة» وابن بطوطة فى «الرحلة» وابن جبير فى

«الرحلة» وابن خلدون فى «التعريف».

وغير هؤلاء وهؤلاء كثير، ولتدلونا على الصفحات التى تنبئ عن تطبيق الشريعة سواء من ولاة الأمور على اختلاف درجاتهم أو من المحكومين من كافة الطبقات وفى نطاق القضاء فلم يكن للقاضى الشرعى سلطان خارج دائرة الأحوال الشخصية (-الزواج والطلاق والخلع والنفقة..) والحبوس (=الأوقاف) حتى فى هذه: كانت القضايا التى تمس الطبقة الحاكمة أو الناحية المالية والاقتصادية- وهذه غالباً ما كانت تتعلق بالحبوس (الأوقاف) والنظر على أموال القصر والمحجور عليهم وتركات من لايخلّفون وارثاً- كان يتم التلاعب فيها من قبل الولاة والمتنفذين ولايجرؤ القاضى الشرعى على أن يعترض أو حتى يفتح فمه بكلمة احتجاج، أما القضايا الأخرى فقد كان ينظرها أو على الأقل الكلمة الفاصلة فيها للسلطان ونوابه وعماله (ولاته) وخاصة الجنائية وعلى الأخص مايتصل فيها بما نسميه الآن «أمن الدولة»، ناهيك عما كان يتفشى فى القضاء الشرعى ذاته من فساد ورشوة (برطلة) وجهل ومحسوبية وتربح وشراء المنصب لأنه يجر مغانم وفيرة تعوض الثمن المدفوع فيه.

إذن فى أى مجال كانت الشريعة مطبقة؟

وهل فى صالح الشريعة أن يُدّعى أنها كانت مطبقة وسائدة مع هذا القدر الوفير من الفساد والطغيان من قبل الحاكمين والانحلال والتفسخ فى المحكومين مما تمتلئ به كتب المؤرخين والرحالين.

أما إذا كان الإخوة الإسلامويون يقصدون بتطبيق الشريعة:

موكب الرؤية (رؤية هلال رمضان)- ليالى رمضان- دوران المحمل- الليلة

الكبيرة (مولد النبى)- الاحتفال بنصف شعبان- العيد الكبير (الضحية) - العيد الصغير (الفطر)- يوم فتح الخليج- موالد أولياء الله الصالحين والعترة الطاهرة: الحسين- السيدة زينب- السيدة نفيسة..إلخ- فهذا أمر لاخلاف عليه ونحن معهم نتحسر على اختفاء هذه المناسبات الطيبة والاحتفالات التى كانت تُقام لها وننضم إليكم فى المطالبة بشدة بعودتها ولكن علماء الاجتماع يسمون هذا كله (فولكلور) والذى أعلمه عنكم أنكم تتوترون وتثور أعصابكم (عَ الآخر) عندما تسمعون هذه الكلمة.

والخلاصة أنه هل آن الآوان للكف عن ترديد مقولات ينقضها العلم والتاريخ!!!

* * *

وقال أحدهم: إذا كانوا يريدون النظام الجمهورى نقول لهم لابد أن يكون عندنا نظام نختار به الحاكم اختياراً حراً لأننا لسنا قطيعاً من الأغنام التى تورث.

والمؤمن كما ورد بالأثركيّس فطن ومن ثم كنت أرجو ألا يثير الأخ مسألة اختيار الحاكم وأن (يكفى على الخبر ماجوراً) كما يقول المثل الشعبى، لأن هذه المسألة إذا نُقلت إلى صفحات الجرائد السيارة فسوف يصبح الأخوة الإسلاميون أو الإسلامويون الأخوة فى وضع لايحسدون عليه، مثلما حدث عندنا تأييدهم المطلق لـ«المجاهدين الأفغان» الذين مازالوا يتقاتلون منذ ثلاثة أعوام خربوا فيها بلدهم وقتلوا من مواطنيهم الأبرياء أضعاف أضعاف من ذهب ضحية حربهم مع ماكانوا يسمونه «النظام العميل»!!!-

ففى اختيار الحاكم فى الإسلام: ذهب بعض الأئمة إلى أنه يجوز أن تنعقد

الإمامة بأربعين فرداً قياساً على «صلاة الجمعة» وأكثر فقهاء البصرة أنها تنعقد برضى خمسة من أهل الحل والعقد وبعض علماء الكوفة ذهب إلى أنها تنعقد بثلاثة (أيّ ثلاثة ولايشترط أن يكونوا من أهل الحل والعقد) يتولاها أحدهم برضى اثنين قياسا على عقد الزواج بوليّ وشاهدين: أما أبو الحسن الأشعرى والغزالى والشهرستانى فمن رأيهم أن عقد الإمامة يتم بواحد فقط واستدلوا على ذلك بعقد أبى بكر الخلافة لعمر بن الخطاب، ويرى جمع غفير من كبار الفقهاء أنها تجوز بولاية العهد كما فعل سليمان بن عبد الملك لعمر ابن عبد العزيز، منهم ابن حزم والماوردى وابن خلدون، ويجوز أن يعهد إلى أبيه أو ابنه أو أخيه لأنه وليّ الأمة والأمين على شئونها. فهل مازال صاحب تلك القالة يتمسك بالعبارات الإنشائية التى فاه بها مثل: .. قطيع الأغنام.. لانورث.

وماهى إذن صفة المحكومين الذين يُفعل بهم ذلك؟

وهل هذا هو النظام الذى يسعون جاهدين إلى إعادته وتطبيقه والذى يصفونه بأنه أكمل وأعظم وأشمخ... إلخ نظام عرفته الدنيا منذ خُلقت وأنه لايوجد نظام آخر يساميه أو حتى يصل إلى موضع قدميه؟

وقال: هم الذين درسوا أصول الدين أى المتخصصون فى علم أصول الدين لاستخلاص الأحكام الفقهية.

وهذا خلط واضح بين أصول الدين وأصول الفقه! وإذا كان هذا هو مدى «فقه» الإسلامويين فى الدين فما هو حال علمهم بالأمور الأخرى!!

وقال: إن الكنيسة استولت على الحكم فى البلاد الغربية.

وكتب التاريخ بكل اللغات متوافرة فليدلنا الأخ على الكتاب الذى خرج

منه بتلك المعلومة وإذا كانت (معلومات) الإسلامويين فى أمور دينهم بهذا الهزال الذى وضح فى الفقرة السابقة فإن معلوماتهم فى غيره من الأمور أشد ضموراً إن لم تكن معدومة سوى مايتلقفونه عن طريق «السماع» وهذا أكثر مايبرز عند كلامهم عن المسيحية ومقارنتها بالإسلام خاصة فيما يتعلق بموقف الديانتين الإبراهيمتين من السياسة وشئون الحكم فهم لم يفتحوا كتاباً عن تاريخ المسيحية ولا مؤلفاً فى علم مقارنة الأديان وليست لديهم أدنى معرفة بـ«المسيحيات» الجديدة التى ظهرت فى دول أمريكا اللاتينية وآسيا وعلى وجه الخصوص فى أفريقيا والتى يطلق عليها (الكنائس الأفريقية المستقلة) ولا عن «المسيحية السوداء» أو «مسيحية السود» التى أخذت تنمو (جميعها) ويشتد عودها منذ عدة عقود ترجع إلى بدايات هذا القرن والتى قلبت مفاهيم المسيحية التقليدية، وكذلك نزعة «لاهوت التحرير» والنظريات الثورية التى أدخلها على المسيحية، والتى تجعل كل من يتكلم عن المسيحية (الكلاسيكية) إنما يتحدث عن حفريات مكانها المتاحف، كل هذا من المؤكد أن إخواننا الإسلامويين يجهلونه تماماً ومن ثم فإن مايخرجون به من تنظيرات حول موقف المسيحية من السياسة والحكم ومقارنته بالإسلام -هذه التنظيرات- تحتاج إلى تغيير وتجديد وإعادة نظر شاملة.

* * *

وقال أحدهم إن الدين فى حالة مد وهذا خطأ واضح فى منهج تفكير القائل، لأن الذى له مد له جزر والذى يقبل الامتداد يقبل الانكماش، والدين من الله تعالى والذى من الله لايعتوره شئ من ذلك إطلاقا، وقد حسم القرآن الكريم

هذه المسألة (اليوم أكملت لكم دينكم) والكامل لانقص فيه ولازيادة عليه، ولعل الأخ القائل أو القائل الأخ يقصد أن التدين فى حالة مد، إذ التدين فعل بشرى والبشر تتسع أعمالهم للمد والجزر والشد والجذب والامتداد والانكماش والسعة والضيق. .إلخ وكان حريّاً بذلك الإسلاموى أن يقرر أن الإنسان إذا ما أصيب بالتخمة وتشبع من الماديات شعر بالملل والسأم وسعى إلى الماورائيات واللامحسوسات، وبالمثل إذا حاصرته المشاكل وأصيب بالفقر والمسغبة والحاجة اتجه إلى كائنات علوية ولجأ إلى قوى غير منظورة يطلب منها العون والمساعدة وتوقع ظهور المهدى المنتظر الذى يملأ دنياه عدلاً ورخاءً بعد أن فاضت بالجور والشدة.

هذا هو التفسير الصحيح لما يسمى بـ«الصحوة» أو «الانتشار» أو «المد الدينى» الذى نشهده سواء فى الدول الرأسمالية أو فى بلاد العالم الثالث.

* * *

وقال أحدهم إن من حقك أن تتحدث باسم الإسلام إذا اقتربت من أصوله الشرعية الصحيحة ورغم غموض عبارة «أصوله الشرعية الصحيحة» وهل للإسلام أصول غير شرعية أم هل له أصول شرعية غير صحيحة- رغم ذلك فإن معنى قالة هذا الأخ أن أى فرد أو جماعة تدّعى اقترابها- مجرد اقتراب- من «أصوله الشرعية الصحيحة» يكون مِن حقه أو حقها التحدث باسم عموم الإسلام، وهذا أحد الأسباب المهمة والجوهرية لـ«الخريقة» -فى المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية: خربق الشئ أفسده- الفظيعة التى تسود الفضاء الإسلامى، ويبدو - والعلم عند الله وحده- أن قائل هذه العبارة التى أفلتت من

عقله الباطن ولكنها تشى باليقين المترسب لدى الإسلامويين جميعهم - لم يسمع بالحديث النبوى المعروف بحديث بريدة (فلاتنزلهم على حكم الله، ولكن انزلهم على حكمك فإنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا)، فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يؤكد أن الصحابى (أحد الفاعلين الاجتماعيين والمشاركين فى تجربة المدينة) قد يعجز عن الوصول إلى حكم الله الصحيح، فكيف يجيز هذا الأخ الإسلاموى لأى مسلم اقترب من الأصول الشرعية الصحيحة أن يحتكر الحديث باسم الإسلام؟

وقال: إن الإسلام ثقافة- وكرر ذلك ثلاث مرات- والإسلام منذ ظهوره فى نظر جميع المسلمين- سنة وشيعة وخوارج... دين، ولم يقل أحد منهم قبل صاحبنا إنه ثقافة، وفرق واضح بين «الثقافة الإسلامية» وكون «الإسلام ثقافة» وأخوهم أ.أنور الجندى فى كل مايكتب يثور ثورة عارمة عندما يصف كاتب أو باحث- الإسلام بأنه تراث أو ثقافة ويرميه فى خندق العداوة الدفينة للإسلام والمسلمين بل وجيران المسلمين!!! ولعل هذا المثل يعطى القارئ دليلا قاطعاً على أن (نجوم الملأ الإسلامى الحديث) الذين يقدمون أنفسهم كرموز له، هؤلاء فى حاجة ماسة إلى دراسة الإسلام دراسة متعمقة مستأنية ليفهموه فهماً صائباً.

* * *

وقال أحدهم: إن القاضى فى الإسلام أكثر القضاة استقلالاً فى العالم- والإخوة الإسلامويون يلجأون دائماً لأفعل التفضيل مثل أفخم وأعظم وأكبر وأعرف وأكرم...الخ، وعلى كلٍ فهذا قول فيه تجاهل- وتأدباً منى لا أقول جهلاً

بما هو مدون فى كتب (الولايات) وموسوعات التاريخ الإسلامى وكتب الفقه فى هذه الخصوصية، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإنى أرجو من الأخ الإسلاموى القائل أن يرجع إلى المعركة الفقهية المستعرة حتى الآن حول مسألة ما إذا كان وليّ الأمر على مذهب أبى حنيفة (مثلاً) وطلب من القاضى الذى ولاّه القضاء أن يقضى بذات المذهب ولكن القاضى خالفه فقضى بموجب أحكام مذهب ابن حنبل (مثلاً) فهل من حق وليّ الأمر عزله أم لا ؟ فلو كان القاضى المسلم أكثر القضاة استقلالاً فى العالم كله كما قال الأخ فلماذا إذن انفجر الخلاف حول هذه المسألة؟

إن مجرد إثارة الخلاف حولها معناه أن استقلال القاضى فيه (قولان)!!

وكتب التاريخ تؤكد لنا أن استقلال القضاة فى الإسلام حبر على ورق ونظرية ينقضها التطبيق العملى وليرجع الأخ الإسلاموى إلى تاريخ مصر منذ عهد الولاة إلى عصر العثمانلية فى هذه الخصوصية.

ولم يكن للقاضى المسلم قانون مكتوب إنما كان يحكم بما كان يؤديه إليه اجتهاده وأحيل قائل العبارة التفخيمية إلى المسألة المعروفة بـ« مسألة التشريك » إن كان سمع بها- وهى أن قاضياً شهيراً من قضاة الإسلام -أحجب اسمه تجنبا لمزيد من غضب الإخوة الإسلامويين- قضى فى المشتركة بالتشريك فى عام وترك التشريك فى غيره، فقيل له: ما هكذا حكمت فى العام الماضى؟ فأجاب: تلك على ماقضينا وهذه على مانقضى وواضح من هذه الإجابة أن القاضى المسلم الشهير تجاوز الرد المباشر إذ لم تكن بحوزته حجة مقنعة.

فهل هذا هو القضاء الذى تريدون إعادته إلينا ؟؟؟

* * *

وقال أحدهم إن الحاكم فى الإسلام يخضع لرقابة صارمة.

ولم يوضح لنا الأخ الإسلاموى أو الإسلاموى الأخ:

مانوع هذه الرقابة؟ ومن يتولاها ؟ وهل كانت على تصرفات الحاكم السياسية أم المالية؟ وكم مرة حدثت فى تاريخ الإسلام؟

وهل يستطيع أن يُجيبنا على الأسئلة الآتية:

أين كانت الرقابة عندما آثر عثمان أقاربه وحمل آل أبى معيط على رقاب المسلمين وبنى الدار واتخذ الضياع والأموال بمال الله والمسلمين، وحرّم على أبى ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الإقامة فى المدينة أو مكة ومنع المسلمين من التحدث إليه، وفى رواية أنه جلده بالسوط فى غير حد ولاجريرة سوى النصيحة له ولعامله على الشام- معاوية، ونفاه إلى «الربذة» حتى مات: غريباً شريداً وآوى الحكم بن أبى العاص وعبد الله بن سعد بن أبى السرح طريدى رسول الله وولى أخاه السكّير الخمّير الوليد بن عقبه «الكوفة» مع وجود عدد من خيار الصحابة كلهم يصلح لتولى هذا المنصب- وأين كانت الرقابة عندما قتل معاوية/حجربن عدّى الكندى وأصحابه لمجرد أنهم كانوا يُبدون بعض الملاحظات على أعماله وعماله وتصرف فى بيت مال المسلمين كأنه ماله الخاص بادعاء أن المال هو مال الله وهو الخليفة: ظل الله فى الأرض!!! فله أن يفعل فيه مايشاء دون حسيب أو رقيب.

وأين كانت الرقابة عندما حرّق عبد الملك بن مروان الكعبة بالنار وقتل

أولاد الصحابة وخيار التابعين وشرّد الأئمة الأعلام؟

وأين كانت الرقابة عندما حضر المأمون العباسي إلى مصر لمواجهة الاحتجاج الذي قام به المصريون-مسلمين ومسيحيين- على الجور الذي أوقعه عليهم جباة أمواله، وفعل بالمصريين الأفاعيل ولم يرقب فيهم إلا ولاذمة، فتصدى له فقيه مصري شجاع هو «الحارث بن مسكين» وكان مالكي المذهب وقال له: إنهم خرجوا أي ثاروا على الظلم الذي حاق بهم فلاتحل لك دماؤهم وأموالهم. أتدري أيها الأخ الإسلاموي أو الإسلاموي الأخ ماذا كان رد المأمون عليه؟ قال له: إنك تيس ومالك أتيس منك!!!

ومضى فيما كان يفعله ولما أخمد ثورة المصريين بطرق بربرية أخذ معه إلى بغداد رؤساء الثائرين.

وفي مقابل هذا الطغيان والجبروت كان الإسراف الذي لم يرله التاريخ مثيلاً حتى ذلك الوقت- والمهزلة نفسها تتكرر الآن مع الأسرات الحاكمة في منطقة الخليج، كل مافي الأمر اختلفت نوعية الأموال ففي السابق كانت أموال المستعمرات المنهوبة: مصر، الشام، أفريقيا، ماوراء النهر.. أما الآن فهي عوائد النفط- الإسراف في إنفاق الأموال العامة على الأفراح والملذات والشهوات..إلخ :فلما تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل وانحدر ناحية واسط فرش ليلة العرس بساطا من ذهب مسفوف ونشر عليه جوهر كثير فجعل بياض الدر يشرق على صفرة الذهب!! ووضع في حجر بوران (العروس) ألف درة فوق صينية من ذهب وقال لها العريس المأمون أو المأمون العريس: هذه نحلتك أي هذا مهرك أو صداقك!!!

وهذه الأموال التى كانت تسفح باسراف يعز نظيره هو عرق الفلاحين المصريين «مسلمين وقبط» وغيرهم من الفلاحين والأجراء فى أنحاء الامبراطورية التى ورثها المأمون عن السفاح والمنصور والمهدى والرشيد..

وكانت لأبى جعفر المتوكل (خليفة عباسى آخر) أربعة آلاف جارية من كل جنس ولون ليمتع بهن مذاكيره، وبنى لهن قصوراً أنفق عليها أموالاً عظاماً منها: الشاه/العروس/الشبذار/ البديع/ الغريب/ والبرج وأنفق على الأخير وحده ألف ألف وسبعمائة ألف دينار أى مليون وسبعمائة ألف دينار فى الوقت الذى كانت العامة تعانى الأمرين للحصول على لقمة العيش، فأين كانت الرقابة وقت ذاك أو فى أى وقت على امتداد التاريخ الإسلامى؟؟؟

وأطلب إليك أن تطالع صفحات فى المأساة المعروفة بمقاتل أو مصارع الطالبيين وما لاقوه من تنكيل وتشريد واغتيالات بالجملة مرة وبالقطاعى مرة أخرى وكيف كانوا أو البعض منهم رجالاً ونساءً وأطفالاً يوضعون فى المحبس أو المطبق ويسد عليهم الباب بالبناء ويتركون بلا ماء أو طعام حتى يهلكوا وكان ذلك يتم على أيدى أبناء أرومتهم أو أبناء عمومتهم من الخلفاء أو عمالهم فأين كانت الرقابة.

واقرأ لتعرف عدد من قتلهم منهم الخليفة (المعجبانى) هارون الرشيد والخليفة المثقف ابنه المأمون وأنصحك أن تبتعد عن الصفحات التى عددت من قتلهم أبو العباس السفاح أو جعفر المنصور حتى لاتنخرط فى نوبة عويل حادة.

فأين كانت الرقابة الموهومة أو المزعومة أو المتخيلة ولماذا سكتت عن تلك الجرائم البشعة التى قل أن تجد لها مثيلاً.

وليت الحيز المسموح به كان أكثر اتساعاً لسردنالك مئات الوقائع حتى تتأكد وتتيقن أن الرقابة على الحاكم المسلم خرافة مثل العنقاء والخل الوفىّ.

ومايؤسف له أنها ليست الخرافة الوحيدة.

وفى ملتى واعتقادى أن هذه الأوهام التى يلوكها الأخوة الإسلامويون هى أحلام يقظة يحلمون بها ويتمنون أن يجدوها فى التاريخ الإسلامى فلما لم يعثروا لها على أدنى أثر قاموا بما يسمى فى علم النفس بـ (عملية الإسقاط) أى نسبوها للتاريخ الإسلامى فى حين أنها مفتقدة فيه وهذا ينطبق عليها جميعها:

التعددية السياسية- حقوق الإنسان وخاصة المتعلقة بالإبداع والفكر والسياسة- استقلال القضاء- الشريعة كانت مطبقة لمدة ثلاثة عشر قرناً- مدنية المجتمع الإسلامى- حرية اختيار الحاكم.. .الخ

* * *

وبعد

فلقد آن الأوان ليكف الإسلامويون عن هذه الأوهام وليدرسوا الإسلام بمعناه الشامل (العلوم الدينية/التاريخ/الحضارة) دراسة موضوعية نقدية بعقول متفتحة بريئة من «ضباب القدسانية الزائفة» الذى يشل ملكة التفكير الواعى والتقييم الصحيح- هذا إن كانوا جادين فيما يدّعون- لكى يقدموا للناس

مشروعاً حضارياً عقلانياً مُطعماً بالقيم والذرى الإسلامية (الموجودة فى كل دين)، أما إذا ظلوا متمسكين بحرفية النصوص وبوهم استعادة الأمجاد السابقة فإنهم لن يبرحوا مكانهم مع أن (الآخرين) يتقدمون فى كل لحظة بسرعة مذهلة.

اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد

الدقى:
١١ من ربيع الأول (الليلة الكبيرة) ١٤١٥هـ
١٩ من أغسطس ١٩٩٤م

خليل عبد الكريم

الفهرس

الفهرس

صفحة

الفهرس

صفحة

رقم الإيداع ٣٧١٨/ ٩٥

الأمل للطباعة والنشر ت: 3904096